عين المدينة

مجلة نصف شهرية مستقلة / العدد 64 / 1 كانون الثاني 2016

نازح من مرج السلطان
الغوطة الشرقية - عدسة رامي الشامي

3ayn-almadina.com
facebook.com/3aynAlmadina

داعش كوباء

عصر يوم الأحد الأخير من الشهر الماضي، اغتال مجهولون الصحافيّ السوريّ المعروف في أوساط الإعلام البديل، ناجي الجرف، في مدينة غازي عنتاب.

ناجي، الذي تميّز بعلاقاتٍ طيبةٍ مع الجميع وبدماثةٍ وابتسامةٍ ومرحٍ دائمين، كان بلا أعداء سوى النظام السوريّ وتنظيم داعش الذي سرعان ما دارت حوله الاتهاماتٌ رغم أنه لم يصدر بياناً يتبنى العملية. ولكن تعاون الجرف مع حملة «الرقة تذبح بصمت»، وإعداده وإخراجه مؤخراً فيلماً وثائقياً بعنوان «داعش في حلب»، وشماتة عددٍ من مناصري داعش على تويتر وفيسبوك بمصرعه؛ كانت قرائن كافيةً بالنسبة إلى الكثيرين.

الأرجح بالفعل أن يكون الأمر كذلك، ولكننا نكرّر ما سبق أن كتبناه عند مقتل الإعلاميَّين الشابين إبراهيم عبد القادر وفارس حمادي في تشرين الأول الماضي، في مدينة أورفا التركية أيضاً؛ من أن «وباء» داعش تجاوز حدود التنظيم وتخطى مبايعيه الفعليين، ليصل إلى مبايعين «قلبيين» غير ذوي صلةٍ مباشرةٍ به، يُطلِق عليهم مصطلح «الذئاب المنفردة» الذي ورثه عن تنظيم القاعدة، ويعني الأفراد الذين لم يتمكنوا من الاتصال به تنظيمياً، ولكنهم آمنوا بالفكر والمنهج، وبإمكانهم تنفيذ العملية التي يرتأون أنها تصبّ في خدمته دون أن يكلفوا بذلك «رسمياً».

وجليٌّ أن هذه الوضعية تثير خيال المراهقين الذين تحفّزهم إصدارات التنظيم الإجرامية، ولذلك لن نستغرب وجود أعدادٍ لا بأس بها بيننا حالياً من هؤلاء الحاقدين المرضى بالعنف وبمناظر الدماء والأشلاء، تتجوّل بمظهرٍ عصريٍّ بينما يهجس عالمها الداخليّ بالتخطيط للقتل والتفجير.

ليست هذه دعوةً للخوف، بالطبع، ولكنها إشارةٌ شديدة الجدية إلى ضرورة أن تعالج النزوعات المتطرّفة بعلاجاتٍ على المستويات الثقافية والدينية والسياسية، وبدرجةٍ أعمق بكثيرٍ من تلك الأمنية والعسكرية. فطالما استمرّت المظالم الصارخة والتمييز تجاه الأفراد والجماعات في هذه المنطقة، طالما ستفرز ذئاباً يتحفزون للثأر.

أياً يكن، وسواء وقعت مسؤولية الاغتيال على عاتق التنظيم أو مسعوريه الهائمين أم لا؛ فقد خسر الإعلاميون والناشطون صديقاً كان يفكّر بسوريا كلها، سوريا كما هي، دون اصطفافاتٍ أو تحيّزٍ من أيّ نوعٍ سوى للثورة وقيمها.

الرحمة للشهيد، والصبر لعائلته، والمزيد من العمل منا جميعاً لكي تكبر طفلتاه، اللتان لم يرتدع القاتل عند رؤية صورهما على صفحة أبوهما على الفيسبوك، حمامتين بيضاوين، وتعيشا في عالمٍ أفضل.

6 ما بعد داعش

7 من تاريخ اللحية في دير الزور

9-8 اقتصاد الرقة في ظلّ داعش

11-10 لقاء مع سليّم الخالد

13-12 لقاء مع قائد تجمّع «فاستقم كما أمرت»

14 إرهابنا جيد.. إرهابكم سيئ

15 روسيا مصنع الاستبداد

17-16 إيلان الكردي ومأساة عائلة سورية

المقاتلات الروسية بقاعدة حميميم الجوية في سوريا

بعد تحديد موعد جولة المفاوضات..

روسيا تتجه إلى وأد الحل السياسيّ

هيئة التحرير

على خلفية إصدار مجلس الأمن قراره الخاصّ بسوريا رقم 2254، أكد المبعوث الدوليّ للسلام ستيفان ديمستورا أنه لن يسمح للتطوّرات المستمرّة على الأرض بإخراج العملية السياسية عن مسارها. جاء ذلك في بيانٍ دعا فيه وفدي المعارضة والنظام إلى عقد جولةٍ من المفاوضات في مدينة جنيف السويسرية في الخامس والعشرين من هذا الشهر. لكن، ورغم تركيز ديمستورا على إنجاز مهمة جمع المعارضة والنظام كبوصلةٍ للحلّ في سوريا؛ لا يمكن اعتبار «التطوّرات المستمرّة على الأرض» سوى انعكاسٍ مباشرٍ للمشهد السياسيّ الدوليّ ومستقبل العمليّة السياسية المرتقبة.

الإبادة كمقدّمة للسياسة

شهدت الأيام الأخيرة من عام 2015 عدّة أحداثٍ ميدانيةٍ مهمّة. ففي الوقت الذي تمّ فيه بدء تطبيق المرحلة الثانية من اتفاق الزبداني-كفريا والفوعة، الذي يقضي بإخراج الجرحى وبعض المدنيين من المنطقتين إلى إدلب وإلى السيدة زينب عبر تركيا ولبنان وبإشرافٍ إيرانيٍّ، شدّد النظام حصاره على بلدة مضايا وقصفه لمعضمية الشام مستخدماً الغازات السامة والبراميل المتفجرة، موقعاً عشرات الضحايا. وفي هذه الأثناء كانت الميليشيات الشيعية تشن هجوماً على منطقة مرج السلطان محاولةً إطباق الحصار على الغوطة الشرقية، تحت مظلة الغارات الجوية الروسية التي استهدفت مختلف المناطق في الغوطتين، وسط معارك طاحنةٍ مع الفصائل الثورية التي تمكنت من استعادة عدّة نقاطٍ كانت قد خسرتها هناك رغم الاغتيال الذي نفذته الطائرات الروسية بحقّ قائد أكبر فصائل الغوطة (جيش الإسلام) زهران علوش رفقة اثنين من معاونيه. وفي جبهةٍ أخرى لا تزال المعارك قائمةً بين الثوّار وميليشيات النظام بعد أن شنت الأخيرة هجوماً على اللواء 82 المحرّر ومدينة الشيخ مسكين الإستراتيجية في ريف درعا. تشير جملة المعطيات السابقة إلى إصرار النظام، وروسيا وإيران كشريكين عمليين له، على تحقيق ما أمكن من مكاسب ميدانيةٍ عبر نهج المجازر والحصار ووفق جدولٍ زمنيٍّ يسبق المفاوضات وأيّ قرارٍ مرتقبٍ بوقف إطلاق النار. لكن نتائج البربريّة الروسية الأسدية لم تفلح في تغيير المعادلة على الأرض وفي «السياسة»، وإن كُتب لإرهاب البراميل والصواريخ الفراغية النجاح في بعض المواضع عبر التجويع والمجازر.

ملاحقة الكاذب

ربط مراقبون كثرٌ اغتيال قائد جيش الإسلام زهران علوش بغايةٍ روسيةٍ تهدف إلى خلخلة صفوف المعارضة التي توافقت في الرياض بحضور ممثلين عن 15 فصيلاً ثورياً بينهم جيش الإسلام، وشكلت الهيئة العليا للمفاوضات. وعبّر المسؤولون الروس أنفسهم عن هذه النية من خلال تصريحات وزير الخارجية الروسيّ الذي قال إن وفد المعارضة يحوي ممثلين عن «جماعاتٍ إرهابية» تارة، أو باعتبار هيئة التفاوض لا تمثل جميع أطياف المعارضة تارةً أخرى، ليطلب إدراج أسماء شخصياتٍ تروق للمزاج الروسيّ ضمن وفد التفاوض، كرئيس حزب الاتحاد الديموقراطيّ الكرديّ صالح مسلم وزميله هيثم مناع. لكن، بالمقابل، صحيحٌ أنّ هناك العديد من المكاسب التي حققها النظام وحلفاؤه باغتيال قائدٍ ميدانيٍّ هامٍّ كعلوش، إلا أنّ توقيت العملية يعكس الصراع الميدانيّ بين المعسكر الروسيّ من جهةٍ وبين معسكر الدول الداعمة للثورة من جهةٍ أخرى، خاصّةً بتزامن العملية مع ما رشح من تسريباتٍ عن عدم احتواء قائمة المنظمات الإرهابية التي أعدّها الأردن على اسم جيش الإسلام، ما دفع الروس إلى توجيه رسالةٍ للدول الداعمة للثورة مفادها أنّ الطريق إلى التسوية يجب أن يمرّ عبر الموافقة الروسية. ورغم ذلك بدا ردّ فعل الهيئة العليا للمفاوضات متوازناً، إذ سلمت أسماء وفد المعارضة التفاوضيّ، الذي يضم 34 من المرشحين، ومثلهم للوفد الاستشاريّ، للأمم المتحدة، على أن تتم مناقشة التفاصيل في لقاءٍ سيجمع وفد المعارضة مع ديمستورا في الأيام القادمة. وبذلك قطعت المعارضة الطريق أمام التدخل الروسيّ في الأسماء وما يصاحب ذلك من محاولات تفكيك نتائج مؤتمر الرياض، الذي تصدّر مقرّراته الإجماع على رحيل النظام وكافة رموزه، وهذا ما تعمل الإستراتيجية الروسية ضده.

يبدو المشهد شديد التعقيد وعلى الصعد كافةً، في ظلّ استماتةٍ روسيةٍ في الدفاع عن النظام المهترئ ولعب الأمم المتحدة والدول الكبرى دور الموظف التوفيقيّ. لكن يبقى أن الثورة مستمرّةٌ وعلى كافة الصعد أيضاً، فلا خياراتٍ أخرى إلا للمخدوعين.

ملتقى حرّان الأدبيّ.. جسرٌ ثقافيٌّ واعدٌ للعرب والترك والكرد

سميرة بدران

ضمن احتفالٍ كبير بعيد اللغة العربية العالميّ، عُقد في قاعة المؤتمرات بكلية الإلهيات في جامعة حرّان بولاية أورفة التركية، أعلن «ملتقى حرّان الأدبيّ» عن تأسيسه يوم الثلاثاء 22 كانون الأول/ ديسمبر 2015.

ويهدف الملتقى إلى جمع المواهب والإبداعات في إطار ثقافيٍّ ينطلق من الوجود العربيّ المكثف في تركيا، كما يعمل على رفد الحركة الثقافية والفكرية في المنطقة بقدراتٍ فكريةٍ تنهض بالحالة العامة للثقافة. ويرمي القائمون على الملتقى، حسب الدكتور جمال قنبر نائب المقرّر العام، إلى إبراز الهوية الثقافية الإسلامية والحضارة العربية من خلال المزج بين الثقافات العربية والتركية والكردية التي طالما تعايشت في بلاد الأناضول بعيداً عن الانتماءات العرقية أو المذهبية أو الفكرية.

وبعد جلسات عملٍ مطوّلةٍ ضمّت عدداً من الأدباء والشعراء والمفكرين والأكاديميين اللغويين، أتراكاً وعرباً وأكراداً، تمّ انتخاب مقرّرٍ عامٍّ للملتقى ونائبٍ له، كما تمّ تعيين منسقٍ للأمانة العامة ولجنةٍ تأسيسيةٍ تحضيريةٍ تقوم على وضع خطوطٍ عريضةٍ لآليةٍ عمل الملتقى وتبحث عن مقرٍّ دائمٍ لعقد اللقاءات ثم تهيّئ لإجراءات الترخيص له.

عن أهداف الملتقى يقول مقرّره العام الدكتور رمضان عمر: «يسعى الملتقى للمساهمة في بناء منظومةٍ قيميةٍ ثقافيةٍ شاملةٍ تشارك بفعاليةٍ في رفد المكوّن الثقافيّ على الساحتين العربية والتركية، مستفيداً من التنوع العرقيّ واللغويّ في منطقة حرّان التاريخية، متبنياً قضايا الأمة العادلة وفق رؤيةٍ موضوعيةٍ منسجمةٍ مع القيم البناءة».

من جهته أكد منسق الأمانة العامة الدكتور أحمد زكريا أن أهمية هذا الملتقى تأتي من خلال لقاء الثقافات والأديان والأعراق، وهو ينتصر للإنسان ويؤكد حقه في العدالة والحرية والكرامة، وقد يحقق ما لم يستطع السياسيون إنجازه على مرّ النكبات.

ملتقى حرّان الأدبي
Harran Edebiyat Forumu

المركز الطبيّ لهيئة «الموحدة فرات»

رغم تقديم المشافي الحكومية التركية خدماتها للاجئين السوريين يفضّل هؤلاء العلاج في المراكز السورية بسبب صعوبة التواصل لغوياً مع الأطباء والممرّضين الأتراك.

افتتحت هيئة «الموحدة فرات» (مؤسّسةٌ خيريةٌ أُسّست عام 2012) مركزها الطبيّ في مدينة أورفا التركية حيث يتركز الجزء الأكبر من اللاجئين القادمين من محافظة دير الزور.

يضمّ المركز أربع عياداتٍ هي الداخلية والنسائية والأطفال والأسنان، يديرها أطباء اختصاصيون من أبناء دير الزور. وتخطط إدارة المركز لافتتاح عياداتٍ جديدةٍ تشمل الاختصاصات الأخرى. ويقول د. جابر بدران مدير المركز: «خلال الأيام الأولى ارتفع عدد المراجعين بشكلٍ ملحوظ، إذ بدأنا بخمسين مريضاً تقريباً في اليوم الأول ونتوقع أن يصل عددهم إلى المئة قبل نهاية الشهر الأول».

يتقاضى المركز مبلغاً رمزياً 5- ليراتٍ تركية- عن كلّ معاينة، متضمناً تكلفة التحاليل المخبرية. ويقدّم خدماته مجاناً للمرضى المحوّلين من مخيم حرّان للنازحين. ولا يكفي هذا المبلغ لتأمين موردٍ يغطي نفقات المركز التي تحمّلها أعضاء هيئة «الموحدة فرات». يقول محمود جيال، مدير الهيئة، إنهم يبحثون عن جهاتٍ داعمةٍ لضمان استمرار المشروع، وإنهم نجحوا في كسب ثقة بعض المنظمات والجهات التركية مثل IHH التي أرسلت كميةً من الأدوية، وكذلك بعض بلديات الأحياء في أورفا، ومسؤولين طبيين أتراكٍ وعدوا باستقبال بعض الحالات الحرجة المحوّلة من المركز، وخاصّةً منها التي تتطلب عملياتٍ جراحية.

بدائل التدفئة في سوريا

مريم أحمد

أصبحت مواد التدفئة هاجساً مزمناً للسوريّ مع اقتراب كلّ شتاء، وخاصّةً في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام. وكان فقدان المحروقات، وغلاؤها في حال وجدت، سبباً جوهرياً للبحث عن حلول بديلة توفر التدفئة؛ بعد أن لم يعد المواطن قادراً على تأمين المازوت والغاز وحتى الكاز الذي صار بديلاً شائعاً في الآونة الأخيرة.

لم يعد الفستق الحلبيّ ثمرةً غذائيةً فقط، ولكنه أصبح أيضاً إحدى أهم وسائل التدفئة، وخاصّةً في مناطق زراعته مثل ريف حماة. فقد ابتكر أحد سكان تلك المنطقة مدفأةً تعمل على قشر الفستق، وهي مكوّنةٌ من بطاريةٍ وخزانٍ ومنجنيقٍ يعمل بحسب العيار. وبعد اختراع تلك المدفأة لم يعد الأهالي يهتمون لقطع أو توافر مواد التدفئة من قبل النظام، فبقشر الفستق الذي يجنونه من محاصيلهم أصبحت تتوافر لديهم مادة التدفئة حتى نهاية الشتاء. كما يتمّ توزيع القشر على الذين لا يملكون أشجار فستق، أو الذين لم يتمكنوا من جني محصولهم.

يقول حسين الذي ساعد في إنجاز هذه الفكرة: «الحمد لله الناس تقبل بشكلٍ كبيرٍ على شراء هذه المدفأة. إنها خطوة جيدة جداً. ونحن، أهالي مورك وكفرزيتا والريف الشماليّ لحماة، اشتهرنا بزراعة شجرة الفستق الحلبيّ، والقشور متوافرة بشكل جيد. وباتت فائدة قشر هذه النبتة ملموسةً على تجارها وعلى السكان، فهي طاقةٌ حراريةٌ بديلةٌ ذات قيمةٍ عاليةٍ بامتياز، تعادل الفحم الحجريّ. وهي رخيصة نسبياً مقابل ليتر المازوت البالغ سعره كحدٍّ وسطيٍّ 150 ل.س».

وانطلاقاً من فكرة استثمار مخلفات الفستق الحلبيّ بدأ آخرون يبحثون عن بدائل مشابهة، وخاصّةً في المناطق التي تفتقر إلى زراعة هذه الأشجار. فحاول الكلّ أن يجد بديلاً، مستغلاً ما يمكن أن توفره له منطقته. ففي المناطق الغنية بزراعة الزيتون كانت مخلفاته أحد أهمّ موارد الدفء للسكان. ويطلق على تلك المخلفات «العرجوم الأسود»، الذي تعددت تسمياته حسب المنطقة، ففي إدلب يسمى البيرين، والدق في اللاذقية، والتمز في جبلة، وأيضاً يطلق عليه الجفت والفيتورا.

وعن كيفية الاستفادة من بقايا تلك الثمرة حدثنا خليل دعبول، صاحب أحد معامل العرجوم في محافظة اللاذقية، قائلاً: «عمل أبي وجدّي بهذه المهنة منذ أيام الاحتلال الفرنسيّ، وتاريخها في عائلتنا يعود إلى عام 1935. قمنا بافتتاح مصنعنا الجديد عند مدخل

مدفأة قشر الفستق الحلبي - خاص

مدينة اللاذقية من جهة الشمال. وتوجد أيضاً معامل أخرى بمدينة عفرين بريف حلب الشماليّ، وبريف إدلب».

أما عن طريقة تصنيعه يقول: «نجلب عجوة الزيتون من المعاصر. وفي الماضي كان يتمّ طحن العجوة وكبسها في آلة تشبه مكبس السيارة فينتج عن ذلك مزيجٌ من الزيت والماء يذهب إلى الفرّازة لفرز الزيت عن الماء وبقايا العجوة، لكن المعاصر الحديثة التي نتعامل معها حالياً تطحن عجوة الزيتون حتى تصبح ناعمةً جداً، مضيفةً إليها الماء الساخن ليدخل بأسطواناتٍ تشبه محمصة القهوة. وبعد ذلك تدور الأسطوانات 3800 دورةً في الدقيقة تقريباً. وتسمّى هذه العملية «الطرد المركزيّ»، أي طرد مزيج الزيت إلى الفرّازات. وتظلّ عجوة الزيتون المطحونة في قاع الأسطوانة».

ويتابع: «نقوم بعدها بجلب هذه العجوة إلى مصنعنا ونضعها على الفور في المحمصة كي تجفّ وتتخلص من الرطوبة. ومن ثمّ نضيف إليها مادة «الكورسيم»، وهي مادةٌ محللة عضوية؛ كي نستخرج الزيت الذي يتمّ استخدمه في مواد التنظيف لأنه يحوي درجة أسيدٍ عالية. بعد ذلك نذهب ببقايا عجوة الزيتون إلى فرن الحرق الذي يكون بداخله الحطب للإشعال الأوليّ. بعد ذلك نخرجه بواسطة آلة كهربائية؛ لأن درجة حرارته تكون عالية جداً، فيصبح على شكل قوالب أو كمياتٍ مطحونةٍ ناعمةٍ جاهزةٍ للتوزيع على المحلات والبيع للمستهلك».

بابتكاراته هذه يكون المواطن السوريّ قد طبّق النظرية التي تقول إن الحاجة أم الاختراع. لقد تغلب على ظروفه وقهر شبح البرد، وأصرّ وما زال مصرّاً على البقاء، على الرغم من براميل وقذائف الأسد وبرد الشتاء.

ما بعد تنظيم الدولة في دير الزور

علي خطاب

تجري في هذه الأيام مناقَشة مرحلة ما بعد تنظيم الدولة الإسلامية بجديةٍ أكثر من أيّ وقتٍ سابق. ويحاول الكثير من سكان المناطق التي يسيطر عليها التنظيم، أو الهاربين منها، تصوّر شكل العدالة التي يمكن أن تسوّي أوضاع الأفراد والجماعات التي اختارت الوقوف إلى جانبه أو القبول به أو السكوت عنه.

يُستثنى من النقاش بطبيعة الحال الموظفون الحكوميون السابقون والحاليون، الذين كانوا عرضةً لآثار صعود وهبوط القوى المسيطرة، ومحاولة كلٍّ من هذه القوى ربط هذا «الجيش المدنيّ» بها. وبعد سيطرة التنظيم ومبادرته إلى اتخاذ القرارات والمتابعة أبدى الكثير من هؤلاء ارتياحه، رغبةً في خدمة البلد والناس أو لمجرّد الاستمرار في عمله. فراح أكثر من ثلاثين فنياً من شركة الكهرباء -على سبيل المثال- يعمل في مشروع التنظيم لإعادة توزيع الكهرباء في مدينة دير الزور، كما انخرط عمالٌ ومهندسون من البلديات والمجالس المحلية في أعمال ترميم وبناء جسور ترابيةٍ على نهر الفرات، وعملوا في إصلاح بعض الطرقات في مدينة الميادين، وتزفيت شارع بغداد في مدينة البوكمال. لقد عمل هؤلاء، وغيرهم في قطاعات النفط والصحة، في ظلّ النظام ثم المجالس المحلية واليوم في ظلّ التنظيم، مما جعلهم تقنيين غير محسوبين على أحدٍ بشكلٍ مباشر.

وفي سياق متصل يُطرَح موضوع مقاتلي الجيش الحرّ السابقين الذين استمرّوا في القتال على الجبهات مع النظام في مدينة دير الزور تحت المظلة العامة للتنظيم دون أن يبايعوه، بعد أن رفض الكثير منهم الاشتراك في معارك خارج المحافظة. فهم يرابطون على الجبهات مدافعين عن مدينتهم ووجودهم من جهة، ومن جهةٍ أخرى يعيشون الحرب في جوٍّ يشبه الوظيفة الحكومية -كما أفاد أحدهم- منتظرين حلاً ما. ويستثني أفرادٌ وقوى معارضون للتنظيم هؤلاء المقاتلين، الذين يُعرَفون بالمناصرين، من تهمة الدعشنة رغم أنهم يقاتلون الآن بإشراف التنظيم. ويختلف من يُخرَجون من دائرة الدعشنة من شخصٍ إلى آخر ومن جهةٍ إلى أخرى؛ وإذا أردنا الدقة نلاحظ أن هؤلاء المعارضين على صلةٍ ما بالمناصرين، وبطبيعة الحال يعرفون رأيهم في أن «دولة التنظيم» مؤقتة. ومن هذه الزاوية يُستثنى من الدعشنة من يُستثنى، حتى أن مراقباً محايداً يستطيع ببساطةٍ إطلاق المثل المشهور «اللي نحبّو ما نسبّو».

أما حين يشمل النقاش عموم المحافظة فتبدو القوى المعارضة للتنظيم مطمئنةً إلى مرحلة ما بعده، ويهوّن الكثير منها من شأن قواه البشرية ذات الأصول المحلية. إذ يتحدث أحدهم -وهو قائدٌ عسكريٌّ سابقٌ- عن مبايعين ثلاثة فقط من ناحيته التي يتجاوز عدد سكانها الثلاثين ألفاً، بينما يتهم الكثيرون تلك الناحية بأنها قدمت مئات إن لم يكن آلاف المبايعين. لكن المطلع يستطيع ان يتفهم دوافع هذا التهوين حين يعرف أن عدد ضحايا التنظيم من دير الزور قد تجاوز الثلاثة آلاف منذ أشهر. ويضاف إلى ذلك التسرّبُ المستمرّ للمبايعين باتجاه تركيا وأوروبا، والمحسوبيات والوساطة التي أصبح بموجبها بإمكان أبناء المنطقة أن يبقوا قريبين من أهاليهم، في وظائف على الحواجز أو الدواوين أو الحراسة أو الحسبة والشرطة. فضلاً عن عدم تمسك غالبية هؤلاء بالتنظيم، إذ إن الكثير منهم تسرّب بشكلٍ تدريجيٍّ و«سلميٍّ» من جبهة النصرة وغيرها باتجاه التنظيم، دون الاطلاع على أفكاره وأهدافه، لكن لصالح شخصياتٍ صاعدةٍ آنذاك لوّحت بالحماية والنفوذ.

وبعيداً عن الولاءات الشخصية ينظر الكثيرون إلى القوى المحلية التي بايعت التنظيم على أنها فعلت ذلك بدافع الانتماء إلى جهةٍ تعرف ماذا تريد، تأمر وتحاسب وتسيّر الأمور وتدفع الرواتب، لا غير. أما باقي التعقيدات فيعوّل بشأنها على الحماية العشائرية المستقبلية. وذلك رغم أن البعض ينتظر مرحلة ما بعد التنظيم منذ ظهوره، خاصّةً من تضرّر بشكلٍ مباشرٍ من سلطته، فراحت تتردد عبارة «بس يروحون الدواعش» في وقتٍ مبكرٍ بانتظار موعد الانتقام من القوى التي دعمت التنظيم وساعدته في السيطرة.

يُنظَر إلى جميع هؤلاء الذين يستثنَون من حرب مستقبليةٍ على التنظيم، في كثيرٍ من النقاشات الحالية، ومن وجهات نظرٍ محليةٍ مختلفة؛ على أنهم قوى لتسيير الأمور فقط، و«راح يقلبون بس يمشون الدواعش». لكن ألا يحقّ لمعارضي التنظيم من فئاتٍ أخرى أن يسألوا: إذا لم يكن كلّ هؤلاء دواعش فمن هم عناصر التنظيم!

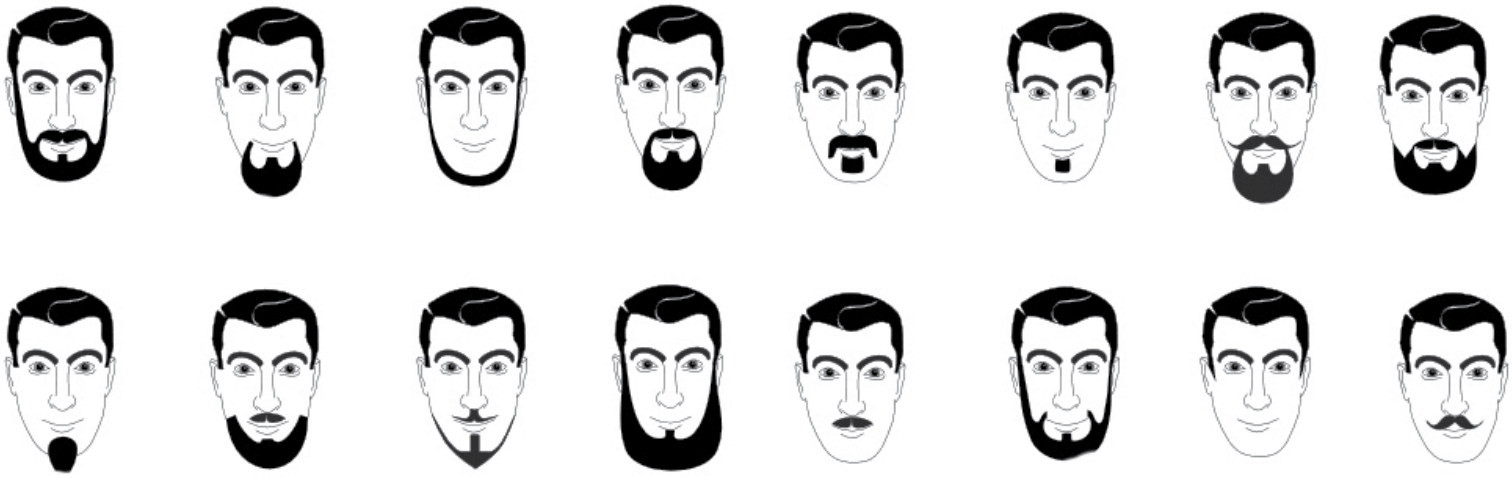

من تاريخ اللحية في دير الزور

سمهر الخالد

تناقل الأهالي حكاية الرجل حليق اللحية الذي خرج من مناطق سيطرة النظام إلى المناطق التي يسيطر عليها تنظيم «الدولة الإسلامية» في دير الزور، وعندما سأله أحد عناصر أوّل حواجز التنظيم عن سبب حلق لحيته بالشفرة ردّ أن الله جميلٌ يحب الجمال، وراح يحاول إقناع عناصر الحاجز ببشاعة مناظرهم بشعورهم الطويلة ولحاهم الطليقة.

اعتقل الرجل طبعاً، لا بسبب حلق اللحية ولكن بسبب قناعاته. فالتنظيم، كما أفادت شهاداتٌ، لا يحاسب الرجال على تخفيف لحاهم عند الخروج من أراضي سيطرة النظام. ويوجّه عناصره أحياناً إلى التخفيف قبل التوجّه إلى هناك، كما ذكر البعض. لكنه، بالمقابل، يشدّد على إطلاق اللحية بحسب المنطقة وقربها من خطوط الاشتباك، إذ يرى أن تخفيف اللحية أحد الذنوب التي يسبّب تراكمها تأخر النصر، مما جعل الرجال هناك في حيرةٍ من أمرهم، إذ لم يبّين التنظيم إلى أيّ حدٍّ يجب أن يصل طول اللحية وإلى أيّ حدٍّ يمكن تقصيرها، لكن الأهالي صاروا يعرفون أنه يلاحق على اللحية حين يكون في حاجةٍ إلى سجناء للعمل بالسخرة.

على أن الوضع لم يكن دائماً على هذه الحال، فعند سيطرته على دير الزور لم يراقب التنظيم اللحى بل ترك الحرية لعناصره ومناصريه في تخفيفها أو تحديدها أو إطلاقها. لكن الدعاية التي سبقته، والصبغة الدينية التي يحملها، وما يرافقها من نمطٍ معين في الهيئة؛ كل ذلك وغيره جعل الكثير من الرجال يطلقون لحاهم طوعاً في حين راح التنظيم يلاحق عليها شيئاً فشيئاً. فلجأ الحليقون إلى حجةٍ قديمةٍ هي الحساسية، كانت تستخدم قبل عقدين من الزمن تقريباً للسماح للشخص بإرخاء لحيته في أماكن -تابعةٍ للدولة السورية- يفرض فيها حلقها. لكن، وبعد أن كثر استعمال جملة «عندي حسَاسَة» على حواجز التنظيم، فرض الأخير على الحليقين حمل ما سمّاه كفالةً طبيةً يستخرجها الشخص من أحد أطباء الجلدية تثبت أن حاملها يعاني من التهاب جريباتٍ شعرية، ثم تحمل ختم أمير المكتب الطبيّ الذي يلجأ أحياناً إلى الطلب من «المريض» إطلاق لحيته والعودة بعد أيامٍ ليتأكد من صدقه.

أصبحت اللحية الطويلة علامة داعش الفارقة. وتشكل تربيتها سباقاً يتبارى فيه الكثير من المنتمين إلى التنظيم وحاضنتهم ومنتظري خدماتهم، بالإضافة إلى الذين يحاولون تجنب عقوباتهم. ويرى شرعيو التنظيم أن كل من نهى عن إطلاق اللحية أو استهزأ بها أو سخر منها فقد ارتدّ عن الدين وخرج عن دائرة المسلمين (بحسب أحد ملصقاتهم). لكن النكتة تناولت مربي اللحية على نطاقٍ واسع، فظهر بين الشباب في مدينة دير الزور تعبير «لحية تركيب بأضوية وغمازات»، في إشارةٍ إلى إظهارها الشخص بعكس ما يبطن. كما أن العديد من الشهادات يفيد أن عناصر من التنظيم حلقوا لحاهم على الحدود ودخلوا الأراضي التركية هاربين من معارك عين العرب/كوباني.

قبل ظهور التنظيم لم تكن اللحية تشكل فارقاً بالنسبة إلى مقاتلي الجيش الحرّ أو غيرهم من القوى الثورية. لكن الوضع تغيّر مع ظهور تنظيماتٍ مثل جبهة النصرة، (أهل اللحى) بحسب المصطلح المحلي. فصار عناصر الحرّ يحرصون على تخفيف لحاهم أو حلاقتها، كما صار الكثير من الأهالي ينتقون مواضيع حديثهم عند حضور أهل اللحى، ويتجنب بعضهم التدخين والتلفظ بكلماتٍ نابية. لكنهم كانوا يناقشون اللحية بحرّية، فمن داعٍ إلى تشذيبها، إلى داعٍ إلى مجرّد وجودها فحسب، إلى منادٍ بتركها على هوى الناس وعدّها من الأمور الشخصية.

يذكر أن إطلاق اللحية اقتصر على رجال الدين منذ الصدام الدامي بين الإسلاميين والسلطة في الثمانينات. وراح بعدها في أوساطٍ شعبيةٍ أن مطلقي اللحى يحملون رخصاً أمنيةً تسمح لهم بذلك. لكن الوضع تغيّر منذ خمسة عشر عاماً، حين بدأت ظاهرة إطلاق اللحية تبرز بين الشباب المتأثرين بالتيار السلفيّ، وهو ما أطلق عليها الكثير من الأهالي اسم «الوهابية» حين حاولوا مقاومة الظاهرة. ولعل السؤال الدارج وقتها عن سبب تربية اللحية «دوا ولا غوا؟» يعبّر عن قناعة الكثيرين بارتباط إطلاق اللحية بأسبابٍ بعيدةٍ عن الدين.

وبالمقابل أصبح العديد من الشبان المتحرّرين من سلطة المؤسسات الحكومية يفخرون بعدم مسّ الشفرة لحاهم، واكتفائهم بالماكينة في تخفيفها. كما ظهرت السكسوكة إلى جانب «الحَنْجَرة» (تحديد اللحية) في أوساطٍ شبابيةٍ واسعة. بينما كاد حلق اللحية بالشفرة يقتصر على كبار السنّ الذين ينظر إليهم كبقايا للتيار العروبيّ، بالإضافة إلى العسكريين والموظفين.

تجـارة الرقة و«صناعتها» في ظلّ «داعش»

فسـادٌ ورشـاوى وابتزازٌ وقراراتٌ مضطربةٌ تدفع أصحاب الثروات إلى إظهار الولاء

تقرير خاصّ

تحوّلت الرقة إلى مركزٍ اقتصاديٍّ أوّل في الأجزاء التي يحتلها تنظيم «داعش» من سوريا، ولا يعلوها أهميةً ضمن أراضي التنظيم سوى مدينة الموصل، حسب ما يؤكد تجارٌ يعملون بين سوريا والعراق.

وقد حصل هذا بتأثير عوامل مختلفة يمكن تحديدها بما يلي:

1- الموقع الجغرافيّ للرقة، المتميّز بقربه النسبيّ من ممرّات البضائع والسلع في البوّابات الحدودية مع تركيا ومن مدينة حماة التي تتوسّط الطرق إلى مينائي اللاذقية وطرطوس.

2- انتقال جزءٍ من التجار والصناعيين من بعض مدن محافظة حلب إلى الرقة بعد توقف أعمالهم بسبب الحرب التي تشهدها مناطقهم، ابتداءً من صيف 2012 وحتى نهاية العام الأول من سيطرة «داعش» على الرقة.

3- ارتفاع عدد السكان بسبب موجات النزوح المتلاحقة إليها، قبل سيطرة «داعش»، من محافظات حلب ودير الزور وحمص، ثم من بعض المدن التي امتدّت إليها الحرب بعد السيطرة، مثل تدمر والسخنة والتجمعات الأخرى في البادية. وفي المجمل ظلّ عدد القادمين إلى المحافظة أكثر من عدد مغادريها في موجات النزوح العكسيّ، التي كانت أساساً من أبناء المحافظة.

فئات التجار

تعمل في الرقة اليوم ثلاث فئاتٍ من التجار حسب رؤوس الأموال المقدّرة لدى كلٍّ منهم؛ الأولى هي فئة الذين تتراوح رؤوس أموالهم بين (1-5) مليون دولار، ولا يتجاوز عددهم 20 تاجراً. وينتمي إلى هذه الفئة كبار تجار الجملة والعملات والذهب والمواد اللازمة للزراعة، إضافةً إلى الملاكين الكبار. والثانية هي فئة التجار الذين تتراوح رؤوس أموالهم بين (0.5-1) مليون دولار، ولا يتجاوز عددهم 100. ويصنّف ضمن هذه الفئة تجار الآلات الصغيرة وبعض الصرّافين وصاغة الذهب، وتجار الإطارات والخردة وقطع تبديل السيارات، إضافةً إلى ملاكي الأراضي والعقارات المتوسطين. وتضمّ الفئة الثالثة أصحاب رؤوس الأموال التي تتراوح بين (0.1-0.5) مليون دولار، وهم الأغلبية في المجتمع التجاريّ، ويقدّر عددهم بحوالي 1000 تاجر. ومنهم مالكو صهاريج نقل النفط ذات الحجم الكبير -وتجار النفط بطبيعة الحال- وتجار الخضار والفواكه بالجملة، وكبار بائعي الألبسة، إضافةً إلى كبار الحرفيين والصناع الذين افتتحوا مؤخراً ورشاتٍ ومصانع صغيرة، وتجار السيارات والأدوات الكهربائية.

قراراتٌ مضطربة

تفتقر المحاولات التي أقدمت عليها «داعش» لتنظيم العمل التجاريّ - والصناعيّ إن وجد- إلى الجدية والنضج

والإحساس الواعي بالمسؤولية، وتتسم بالاضطراب والتناقض والجهل. ورغم التباهي في دعاية «داعش» بازدهار الأسواق ومكافحة الغش لم يظهر بين أجهزة التنظيم جهازٌ واضحٌ وواحدٌ يتولى شؤون «الاقتصاد» في «ولاية» الرقة كما في غيرها من «الولايات». إذ يتدخل في هذا الشأن معظم مسؤولي وأمراء التنظيم، من قضاةٍ وشرعيين وأمراء حسبةٍ وأمنيين وعسكريين، كلٌّ في قطاعه الجغرافي وحسب الدوافع ومقدار النفوذ. وصدرت، خلال عامين من سيطرة داعش على الرقة، قراراتٌ عدّةٌ لا ترقى أبداً إلى مستوى القانون، ولم تكن منسجمةً في ما بينها، مع خضوعها الدائم لخروقاتٍ وتعديلات، لتتشكل بيئة عملٍ غريبةٌ وشديدة التغيّر. ففي ملف الأراضي الزراعية المؤمّمة بقراراتٍ اشتراكيةٍ سابقةٍ لم تسلك «داعش» سلوكاً واحداً، إذ انتزعت بعض هذه الأراضي من مالكيها الحاليين وأعادتها إلى ملاكها الأصليين في بعض مناطق الرقة، وأبقتها في أيدي المستفيدين أو الملاك الحاليين لها في مناطق أخرى. وكذلك في موضوع القرارات الخاصّة بالمحلات التجارية المستثمرة بنظام (الفراغ) منذ وقتٍ طويل، إذ أُخرج بعض المستثمرين من بعض المحلات دون أيّ تعويض، محاباةً لبعض الملاك الذين كانوا قد تلقوا مبالغ طائلةً من المستثمرين وقت التأجير، ورُدّت دعاوى ملاكٍ آخرين محاباةً للمستثمرين. ولم يكن الحال أفضل في حقل الصناعات والحرف،

> ما إن تمكنت «داعش» من فرض حضورها في الرقة حتى بدأت التحرّش ببعض التجار، فاعتقلت الشيخ أحمد عجان الحديد، وهو تاجرٌ كبيرٌ ومعروفٌ، بذريعة عقيدته الصوفية «الفاسدة»، واستولت على ممتلكاته المقدرة بـ(3) مليون دولار حسب تجار، قبل أن تحرّره كتائب الجيش الحرّ التي اقتحمت سجون «داعش» أثناء المعارك المندلعة بين الطرفين.

فعلى سبيل المثال يمنع قادة «داعش» بعض الأشخاص من تقليد الماركات الشهيرة في بعض المناطق ويسمح به لأشخاص آخرين في مناطق أخرى. وحصيلةً لهذا الواقع التجاريّ والصناعيّ الغريب والمضطرب والخطِر في آنٍ واحدٍ لم يجد أصحاب الثروات من تجارٍ وملاكٍ وصناعيين إلا خيارين؛ الرحيل وما يرافقه من خطر مصادرة «داعش» للثروات، أو البقاء والتكيّف مع معطيات هذا الواقع.

منافع متبادلة

إن الشكل الوحيد الممكن للتكيّف هو الولاء للتنظيم أو تأييده ثم بناء شبكة علاقاتٍ ومنافع متبادلةٍ مع شخصياتٍ قياديةٍ فيه، اتقاءً للشرّ وحمايةً للنفس من الاعتقال وللثروة من المصادرة بالنسبة إلى بعض أصحاب الثروات، وطمعاً في الربح وتلقي معاملة تفضيليةٍ بالنسبة إلى البعض الآخر. وتعزّز صعوبة، وربما استحالة، نقل الثروة إلى خارج مناطق التنظيم من أسباب البقاء في هذه المناطق، وخاصّةً لملاك العقارات والأراضي، إذ يسارع التنظيم إلى مصادرة أملاك الغائبين أو المقيمين في مناطق «المرتدّين والكفار»، وهي كلّ ما يقع خارج سيطرة «داعش». عاملٌ آخر يجب تسجيله لتوضيح دوافع أصحاب الثروة في التكيّف مع «الدواعش» أو التقرّب منهم، هو تقاليد العمل الاقتصاديّ الموروثة من عهد نظام الأسد التي جعلت من الاتصال بالسلطة أمراً لا غنى عنه لتأمين السند في أوقات التعثر والخطر، ولتحقيق درجةٍ من الإحساس بالأمان في بيئةٍ تطلق فيها الاتهامات وتقطع الرؤوس لأتفه الأسباب.

وإلى جانب الجسم الأكبر من أصحاب الثروات المتكيّفين اضطراراً مع «داعش» ظهرت أقليةٌ، من جميع الشرائح المالية، تؤيد التنظيم بدوافع مبدئية. وجاء معظم هؤلاء من المدن الريفية في حلب. ويتفاوت أثر هذا المبدأ في سلوكهم العمليّ حسب الظروف ومهارة كلٍّ منهم وجرأته على المزيد من الانخراط تأييداً لـ«داعش» وتحقيقاً للنفوذ والحظوة فيها. وتتجسّد المكاسب العامة للتنظيم من هؤلاء في تقديمهم خدماتٍ ماليةٍ ووظيفيةٍ وتجاريةٍ لأجهزته المختلفة، فيكلف بعضهم بجلب بضائع ذات استخدام مزدوج في الحقلين المدنيّ والعسكريّ على سبيل المثال، أو بتسهيل تحويلاتٍ ونقل أموالٍ بين الداخل والخارج، أو بمهماتٍ أخرى يسهل على التجار تأديتها دوناً عن غيرهم. أما المكاسب الخاصّة فينالها الفاسدون من قادة «داعش»، وهم نسبةٌ ملحوظةٌ ومتزايدةٌ في الصفين الأول والثاني لقادة التنظيم في الرقة. وتأخذ هذه المكاسب أشكالاً مختلفة، مثل تشغيل بعض القادة أموالهم الخاصّة لدى بعض التجار، وتلقي رشىً على شكل صدقاتٍ وتبرّعاتٍ بمبالغ كبيرةٍ يدفعها التاجر للمسؤول «الداعشيّ» بحجّة معرفة الأخير الأوجه المستحقة لإنفاقها بشكلٍ أفضل، وتلقي قادة «الدواعش» معاملةً خاصّةً -الشراء بأسعارٍ أقلّ- في معاملاتهم اليومية. ويحرص بعض قادة «داعش» على تقديم المساعدة لبعض أصحاب الثروة الكبار دون مقابلٍ حاليٍّ، وفق ما يُعرف بـ«زرع الجميل»، على أمل تحقيق استفادةٍ لاحقةٍ من الثريّ كردٍّ لهذا «الجميل».

> فرض قضاة «داعش» على تاجر يعبّئ الأرز في أكياس تقلد ماركةً شهيرةً دفع مبلغ (200) ألف دولارٍ كغرامةٍ بذريعة الغشّ، في حين لم تبالِ بمقلدين آخرين لبضائع وسلعٍ أخرى.

قضية المخرز

في الشهر التاسع من عام 2014 اختفى جامع أموالٍ شهيرٌ في الرقة، يلقب بـ«المخرز»، في ظروفٍ غامضة. قالت بعض الشائعات إنه هرب، وقالت شائعاتٌ أخرى إنه معتقلٌ لدى أمنيي «داعش» طمعاً بالأموال المتجمّعة لديه، التي قدّرها تجارٌ من الرقة بـ(20) مليون دولار تقريباً. تلاحقت الدعاوى المرفوعة ضد المخرز إلى قضاء «داعش» الذي بدا مرتبكاً وغير مؤهلٍ لهذا النوع من القضايا -كما لمعظم الأنواع الأخرى- فتناوب عدّة قضاةٍ على النظر في هذه القضية، طبّق كلٌّ منهم إجراءاتٍ مختلفةً عن الآخر، وتعامل بعضهم بطرقٍ مختلفةٍ مع كلّ مودعٍ من مودعي الأموال. إذ تسبّب أحد هؤلاء القضاة في خسائر إضافية لبعض المودعين عندما رغّبهم في دفع الأرباح التي تلقوها من المخرز أولاً، لإعادة توزيعها على مودعين آخرين، على أن يستردّوا رؤوس أموالهم لاحقاً. ولم يحصل المخدوعون بوعود هذا القاضي على أيّ شيء، في حين ساعدت وساطات أبو علي الشرعي، وهو مسؤولٌ نافذٌ في التنظيم، بعض المودعين في استرداد كامل أموالهم. ذكّرت هذه الحادثة السكان بحوادث مشابهةٍ عن جامعي أموالٍ وقعت في عهد نظام الأسد، ودلت على افتقار البيئة في ظلّ «داعش» إلى طرقٍ آمنةٍ ومشروعةٍ لتشغيل المال المدّخر الأخذ في التآكل نتيجة الظروف العامة للحرب والظروف الخاصّة بالرقة وبالمناطق الأخرى الواقعة تحت سلطة «داعش».

سليّم الخالد: ننتظر ولادة جسمٍ عسكريٍّ يجمع أبناء دير الزور

سننتصر وسيذهب الزبد ونبقى نحن لأننا على حقٍّ وسنبني سوريا من جديد

حاورته هيئة التحرير

قد تكون الثورة بالنسبة إلى سليمان عيادة الخالد، المعروف بـ«سليّم»، استئنافاً لحادثةٍ قديمةٍ من العام 1986، عندما كان طالباً في الصف التاسع يسمع همساً من الناس حكايا عن وحشية النظام الذي يمجّده بعثيو المدرسة، ليستبدّ به الغضب ذات يوم ويمزّق صور حافظ الأسد من على جدران الصفّ، وكذلك شعارات حزب البعث وعهد الشبيبة بـ«التصدّي للإمبريالية والصهيونية والرجعية وسحق أداتهم المجرمة عصابة الإخوان المسلمين العميلة». خلال شهرين في أقبية المخابرات بعد ذلك تعرّض سليّم لأشدّ أنواع التعذيب التي جعلته «لا يكره شيئاً في الدنيا مثل كرهه لنظام الأسد». سنواتٌ كثيرةٌ مرّت، كبر سليّم خلالها وصار فنيّ كهرباءٍ وموظفاً في محطة مياه بلدته الشحيل. لتأتي الثورة وتمنح ممزّقَ صور حافظ الأسد القديم فرصته ليتظاهر ويحمل السلاح دفاعاً عن المتظاهرين ويمزّق من جديدٍ صور الأسد الابن وما تبقى من صور الأب.

في الشهر السادس من عام 2011 أسّس سليّم كتيبة «أسود الجزيرة والفرات»، التي اتحدت مع كتائب أخرى في الشهر الأول من العام 2012 لتشكل لواء جعفر الطيار الذي كان له حضورٌ لافتٌ في المشهد الثوريّ العسكريّ بدير الزور. إذ حقّق بقيادة سليّم -ومع تشكيلاتٍ أخرى- إنجازاتٍ كبرى كان أبرزها تحرير مدن الميادين ومعدان والبتبي ومنطقتي الشولا وكباجب وموقع الكبر النوويّ في الريف الغربيّ. قاد سليّم «جيش الإسلام في المنطقة الشرقية» الذي ضمّ وقت إعلانه لواء جعفر الطيار وألويةً أخرى، وكان له دورٌ رئيسيٌّ في الحرب ضد تنظيم داعش الذي نجح، بعد ستة أشهرٍ من المعارك تقريباً، في احتلال المحافظة.

هل كنت تتوقع أن يحدث ما حدث للجيش الحرّ بدير الزور؟

لا، أبداً. ولكنني أحسست بالقلق في وقتٍ مبكّر، وتحديداً بعد أن حرّر الجيش الحرّ معظم المحافظة وانصرف بعض القادة والكتائب والتشكيلات إلى آبار النفط وصوامع الحبوب. وكذلك أشعرني بالقلق التأثيرُ المتزايد للمشاريع القادمة من الخارج، وكنت أرى دورها في تخريب الجيش الحرّ وتفكيك كتائبه خدمةً لأهدافٍ غير تلك التي خرجنا من أجل تحقيقها. اندلعت الثورة ضد الظلم والفساد، وكانت أهدافنا ضمن هذه الخريطة؛ خريطة سوريا، لكن لأصحاب هذه المشاريع طموحاتٍ مختلفةً ورأياً لا يقيم لمبادئ الثورة اعتباراً كبيراً. شهدنا اغتيالاتٍ وتصفياتٍ لقادةٍ في الجيش الحرّ نعلم أن من وقف وراءها كان من المتطرّفين في تنظيم داعش أو من انضمّ منهم إلى داعش وقت إعلانها. طرفٌ آخر أسهم أيضاً في تخريب الجيش الحرّ هم جامعو التبرّعات أو الأموال المقيمون في دول الخليج على وجه الخصوص، سواء أكانوا مجموعاتٍ أم أفراداً، إذ استغلّ هؤلاء حاجة بعض القادة وجشع البعض الآخر. كانت حفنةٌ من الدولارات يتسلمها البعض من جامعي الأموال كفيلةً بتفكيك تشكيلاتٍ وإعلان أخرى، من ألويةٍ

وفرق ثم جيوش وجبهات وغير ذلك مما اعتدنا رؤيته، وخاصّةً في العام الذي سبقَ احتلال داعش المحافظة.

ألم تفكروا في بناء مؤسّسات، أهمّها بالطبع مؤسّسة عسكرية تدير العمل المسلح بشكلٍ منظّم ومنضبط؟

كانت نظرتنا قاصرةً، ولم نفكر في أهمية الجانب المدنيّ من الصراع. كنا نفكر فقط في طرد قوّات الأسد من المدن والقرى دون أن نفكر في من سيديرها بعد التحرير. كان علينا أن ندافع عن المجالس المحلية وعن أصحاب الخبرة والاختصاص في المنشآت العامة من الذين تركناهم وحدهم في مواجهة اللصوص والفوضويين والانتهازيين. ولم ندرك آنذاك أهمية أن ننخرط جميعاً في جسم عسكريٍّ واحدٍ بل زاد انقسامنا وتشتت غاياتنا بين من يقاتل من أجل المال على آبار النفط والمواقع الحكومية الأخرى ومن يواصل قتال النظام.

لماذا لم يحم لواء جعفر الطيار، وهو من أقوى تشكيلات الجيش الحرّ وأوسعها انتشاراً، بعض المنشآت العامة؟

نجحنا في حماية معظم المنشآت التي حرّرها اللواء، مثل حقل الورد النفطيّ. وساعدنا مجلس المحافظة في مشروعه بتأسيس مصفاة نفطٍ في هذا الحقل. ولم نكن وحدنا في منشآت النفط الأخرى، وأسهمنا -حسب ما نستطيع- في تقليص الأضرار عليها.

لكن لواء جعفر الطيار لم ينتزع بئراً تابعاً لحقل الورد، ولا يبعد عنه سوى مسافة قصيرة، من سيطرة شخص واحد شغّله لحسابه لأكثر من عام كامل؟

صحيح. لم نفعل شيئاً مع هذا الشخص لأننا تجنبنا الصدام مع المدنيين حتى لو كانوا لصوصاً من هذا النوع، إذ سرعان ما يظهر للصّ أقارب وعشيرةٌ تدافع عنه وندخل بعدها في صراعاتٍ لا تنتهي. في حقل الورد حاولت بعض عشائر المنطقة أن تطردنا بحجّة أن هذا الحقل يقع ضمن أراضيها، وهي الحجّة المتكرّرة في كلّ موقع نفطيٍّ بدير الزور. لم ندخل معارك من هذا النوع، ولو قاتلنا اللصوص لما وجدنا وقتاً لقتال قوّات الأسد. لو كانت هناك سلطةٌ وقضاءٌ وشرطةٌ لقامت بهذه الأعمال، ولكن هذا لم يحدث مع الأسف. وحتى الهيئة الشرعية المركزية لم تقم بهذه الأعمال إلا في نطاقٍ ضيقٍ وخدمةً لجبهة النصرة فقط.

يقول الناس في دير الزور إن الهيئة الشرعية كانت منحازةً، وكانت تحابي أبناء عشيرة البوكامل، وخاصّةً منهم أبناء بلدة الشحيل، إلى الدرجة التي أطلق عليها السكان اسم هيئة البوكامل؛ هل توافق على ذلك وأنت ابن عشيرة البوكامل وبلدة الشحيل؟

لا، لم تكن الهيئة الشرعية للعشيرة أو للشحيل، إنما كانت لجبهة النصرة. ولأن الشحيل هي المعقل الرئيسيّ للنصرة بدير الزور، ولأن كثيراً من قادتها ينتمون إلى هذه البلدة، اختلط الأمر على الناس. والدليل هو ما لقيناه نحن من هذه الهيئة التي أخرجتنا من حقل العمر ومن معمل كونيكو للغاز لتستفرد جبهة النصرة بهما، قبل أن يُطرد ممثلنا في هذه الهيئة.

كيف انتصرت داعش في دير الزور؟

أسبابٌ كثيرةٌ أدّت إلى انتصار داعش، منها سقوط الموصل والمحافظات العراقية الأخرى على الحدود مع سوريا، وما استولى عليه التنظيم من كمياتٍ هائلةٍ من الأسلحة، وكذلك الانقسامات والخلافات بين عشائر دير الزور، وسلوك الهيئة الشرعية أو جبهة النصرة وبعض تشكيلات الجيش الحرّ التي دفعت بتشكيلاتٍ وعشائر أخرى إلى أحضان داعش لا حباً بها بل كرهاً بخصومها وكيداً لهم.

لماذا سقطت الشحيل بهذه السهولة أمام داعش؟ لماذا لم تواجهوا التنظيم عندما كان على أطراف البلدة؟

قبل أن تقترب داعش من الشحيل تكبّد أبناء هذه البلدة -بفصائلهم المختلفة- خسائر فادحةً خلال المعارك التي خاضوها لأشهرٍ عدّة. وحين اقترب التنظيم منا كنا منهكين ووحدنا تقريباً بعد أن خذلتنا بعض العشائر التي قال بعض زعمائها دعوا الشحيل والبكيّر -أو داعش والنصرة- يفنون بعضهم، فكلهم بوكامل وفخار يكسر بعضه. قبل يوم من دخول داعش، من أصل ألف مسلح أو مقاتل ضدّ داعش في الشحيل لم يبق سوى 25، وتوزّع الباقون بينَ من جلسَ في بيته منتظراً ما ستؤول إليه الأمور، وبين من كان يقاتل داعش في معارك أخرى من المعارك الكثيرة التي أطلقتها في وقتٍ واحدٍ وأمكنةٍ مختلفةٍ من المحافظة.

لماذا لم يولد حتى الآن جسمٌ عسكريٌّ يجمع أبناء دير الزور بعد عام ونصف من احتلال داعش؟

لأننا جميعاً، كلّ قائدٍ ومجموعةٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ من دير الزور، مرتبطون بجهاتٍ أو بفصائل أخرى تتولى تمويلنا وتسليحنا ولا نقدر على مغادرتها دون بديلٍ مقنع. نحن، مثلاً، ليس أمامنا إلا جيش الإسلام. وكذلك حال معظم أبناء دير الزور في أحرار الشام وجبهة النصرة وغيرهم ممن يضطرّون إلى مجاملة مموّلين أو داعمين. حتى الآن لم تبدِ أيّ دولةٍ أو جهةٍ اهتماماً بدير الزور. كلّ ما يحدث هو استغلال أو تسخير مقاتلي المحافظة في مشاريع غير مخلصةٍ وبعضها مشبوهٌ يتجاهل نظام الأسد، وهو أصل البلاء ومنبع الإجرام والسبب الأوّل في ظهور داعش وتمدّدها. سنبقى ننتظر حتى يولد جسمٌ عسكريٌّ يوحّدنا لتحرير بلدنا ويعمل على تحقيق أهداف الثورة التي خرجنا من أجلها. وإلى أن يحين ذلك الوقت سنقاتل مع إخوتنا على الجبهات في المحافظات الأخرى، فنحن سوريون أيضاً، وأيّ انتصارٍ على قوّات الاسد وداعش في أيّ مكانٍ من سوريا هو انتصارٌ لنا.

لو ظهر هذا الجسم؛ هل تقبل أن تتخلى عن صفتك كقائد؟

أقسم بالله أن أكون مقاتلاً عادياً، وبأقلّ درجةٍ، في أيّ جسمٍ أو تشكيلٍ يحقق ما نطمح إليه، وأن أتبع أيّ قائدٍ لهذا التشكيل.

كلمة أخيرة...

أنا متفائلٌ رغم الواقع البائس. ستنتصر هذه الثورة حتماً. وسيعود المهجّرون وستبنى سوريا مرّةً أخرى بعون الله. وسيذهب هذا الزبد وسنثبت نحن في النهاية لأننا على حقٍّ ولأننا أصحاب هذه الأرض.

من أبرز الفصائل التي لا زالت تدافع عن ثورة الحرية وعَلَمِها..

«عين المدينة» تحاور قائد تجمع «فاستقم كما أُمرت»

حاوره أحمد أبو زيد

مع مرور الأيام، حادت معظم الفصائل العسكرية في سوريا عن الخط الذي بدأت عليه عند تسلّح الثورة، وانجرفت مع التيار الذي حمل صبغة «إسلامية». واندفع الكثير من ثوار الأمس إلى النفور من وصفهم بـ«الجيش الحرّ» أو «الثوّار»، وأصرّوا على أن يُحسبوا «مجاهدين»، يرفضون رفع علم الثورة ويعدّونه علم العلمانية أو الائتلاف، واستبدلوا به راية تنظيم القاعدة أو راياتٍ أخرى تحمل عباراتٍ إسلامية.

ورغم أن الشمال السوريّ كان مُهيئاً أكثر من المناطق الأخرى لهذه الظاهرة، نظراً لقربه من الحدود التركية التي كانت بوابة دخول المقاتلين الأجانب، إلا أن حلب لا تزال على ثورتها الأولى، ولا زالت كبرى فصائلها تتخذ من علم الثورة رايةً لها وتفتخر بانتمائها إلى الجيش السوريّ الحر.

ومن تلك الفصائل تجمع «فاستقم كما أُمرت»، الذي يعدّ أحد أبرز الفصائل العسكرية العاملة في حلب وأقدمها. وفي الذكرى الثالثة لتأسيسه حاور مراسل «عين المدينة» في حلب قائده صقر أبو قتيبة.

بداية حبذا لو نتكلم عن تجمع فاستقم كما أمرت؛ تاريخ تأسيسه والفصائل التي شكلته وانجازاته العسكرية والجبهات التي توجد فيها مجموعاته؟

أُسّس التجمع بتاريخ 15/12/2012

من قبل تسعةٍ من كبرى الفصائل العسكرية العاملة في حلب. وانتخبت تلك الفصائل حينها الشيخ توفيق شهاب الدين قائداً لها قبل أن يتعرّض لمحاولة اغتيال أصيب خلالها بجروح وتنحى عن قيادة التجمع وتمّ انتخابي خَلفاً له. كان الهدف من تشكيل التجمع هو توحدٌ فصائليٌّ على مستوى الشمال، كتوحدٍ فدراليٍّ وليس انصهاراً كاملاً، لتنسيق عملٍ كبير بدأ بعد حوالي عشرة أيام من تاريخ التشكيل، استطعنا من خلاله تحقيق إنجاز وتقدم على حساب قوّات النظام بالسيطرة على حيّ «الشيخ سعيد» الإستراتيجيّ وقطع طريق إمداد النظام الواصل بين مطار النيرب ومدينة حلب.

تمكنت قوات التجمع آنذاك من تحرير الحيّ بالكامل، وأسر عددٍ كبير من شبيحة النظام، واغتنام كميةٍ كبيرةٍ من أسلحتهم، بعد معارك استمرّت 12 يوماً. وبعدها واصلنا تقدّمنا وسيطرنا على عدّة نقاطٍ ضمن معركة «رصّ الصفوف»، التي شاركت فيها عدّة فصائل أخرى، ونتج عنها قطع طريق «خناصر» وتحرير تلة عبيدة وحجيرة وقرى أخرى في ريف حلب الجنوبيّ.

ومن أهم معارك التجمع أيضاً معاركه ضد تنظيم الدولة. إذ كان التجمع من أولى الفصائل التي قاتلت التنظيم

صقر أبو قتيبة (يسار الصورة) مع عددٍ من مقاتلي التجمع بينهم القياديّ العسكريّ أبو خالد عزيزة (بالقميص البرتقالي) الذي استشهد في تشرين الأول الماضي بالاشتباكات مع داعش في ريف حلب الشمالي - خاص

ووقفت في وجه تجاوزاته بحقّ أهالي مدينة حلب وثوارها، وكان التجمع من ركائز «جيش المجاهدين» الذي تشكل أواخر عام 2013، قبل أيام قليلةٍ من بدء القتال بين الثوار والتنظيم والنّجاح في طرده من حلب وريفها خلال مدّةٍ قصيرة.

بعد فترة من تأسيس التجمع أعلنت كتائب أبو عمارة انسحابها منه، وتبعتها في هذا القرار فصائل أخرى؛ ما هي أسباب انسحابهم؟ وهل أثر ذلك على التجمع من حيث القوة أو التنظيم؟

رفضت كتائب أبو عمارة قتال تنظيم داعش لأسبابٍ خاصةٍ بها، ولذلك انسحبت من التجمع الذي كان -كما ذكرت- من أبرز الفصائل التي قاتلت داعش ضمن «جيش المجاهدين». وهناك فصائل أخرى تمّ فصلها، فبعد انتخابي لقيادة التجمع أصدرت قراراً بفصل بعض الفصائل غير الفاعلة، وهي درع الشهباء ودرع الأمة وأنصار الدين وفصيل ذو النورين، وتمّ ضمّ فصائل جديدة، وأعدنا توزيع الفصائل على شكل أفواج. وضع التجمع الآن أفضل بكثير. وهو موجودٌ على جبهات ريف حلب الجنوبيّ ضد النظام وميليشياته الطائفية، وأيضاً على جبهات قتال داعش في الريف الشماليّ، وعلى نقاط رباطٍ داخل مدينة حلب.

وُجّهت اتهاماتٌ للتجمع بالضلوع في تسليم بعض المطلوبين لتنظيم داعش، منهم القيادي أبو علي صليبة؛ ما هي حقيقة هذه الاتهامات؟

أبو علي صليبة كان أحد قادة كتائب التجمع، ووردت بحقه عدّة شكاوى واتهاماتٌ بالسرقة وتجاوزاتٍ أخرى. قمنا على إثرها بتوقيفه لدينا والتحقيق معه قبل أن نطلق سراحه ونعلن فصله من التجمع نهائياً على خلفية تلك الاتهامات. توجه هو بعدها إلى العمل مع فصيل خالد حياني، وداعش اعتقلته خلال تلك الفترة بتهمة التعامل مع الحياني.

ما هي الجهة القضائية التي يعترف بها التجمع؟ وما المحكمة التي تحيلون إليها المسيئين سواء من العسكريين لديكم أو من المدنيين؟

نحن نعترف بكافة الجهات القضائية التابعة للثورة السورية والمشهود لها بالنزاهة والمصداقية. أما المحكمة التي نحيل إليها قضايا المسيئين للبتّ فيها فهي مجلس القضاء الأعلى في مدينة حلب ومركزه في حيّ الأنصاري.

مؤخراً عادت من جديد ظاهرة الخطف في المناطق المحرّرة من قبل مجهولين، وكافة العمليات التي تمّت في حلب كانت تحمل بصمات تشبه إلى حدٍّ كبير بصمات داعش؛ دائماً سيارة لا تحمل لوحات يُستقلها ملثمون يخطفون أحد الناشطين ثمّ يختفي؛ برأيكم من يقف وراء هذه العمليات؟

الجهة التي تقف وراء عمليات الخطف اليوم تحمل نفس فكر الجهات التي كانت تخطف بالأمس، فهم يعتبرون أنفسهم أصلح أهل الأرض ويحق لهم تكفير هذا ومحاسبة ذاك. أصبح معروفاً لدى الجميع من هي هذه الجهة ولماذا تفعل ذلك، إنهم يخافون من الناشطين والإعلاميين ويحاربون من يعارضهم من باب من ليس معنا فهو ضدنا.

أخيراً، هل وُجّهت إليكم دعوةٌ لحضور مؤتمر الرياض الذي عقد مؤخراً؟

نعم، وُجّهت دعوةٌ عامةٌ لكافة فصائل الشمال، بما فيها نحن كتجمع فاستقم، لحضور مؤتمر الرياض. اجتمعنا في تركيا واتفقنا على اختيار وفدٍ يمثلنا ذهب إلى الرياض ونقل صوتنا الذي كان يعبّر عن رأي الشارع الثوريّ بما لا يتعارض مع ثوابت الثورة وتضحيات الشعب السوريّ.

آراء ناشطين حلبيين حول تجمع فاستقم

قامت «عين المدينة» باستطلاع آراء بعض الناشطين في مجالاتٍ مختلفة من الثورة داخل مدينة حلب حول تجمع فاستقم كما أمرت، فأشادوا بتوجه الفصيل الذي يرون أنه ما زال يلبي تطلعات من طالب يوماً بتسليح الجيش الحرّ ودخوله بينهم لحمايتهم والدفاع عن ثورتهم ومبادئها.

الناشط الحلبيّ فؤاد حلاق قال: «ما يميّز التجمع أن قادته وعناصره من الشريحة الثورية التي شاركت في الحراك السلميّ، ومواقفه ثابتة من الثورة، وهو الأقرب إلى الناشطين السلميين في مدينة حلب. وبالرغم من أن نقاط رباطه في المدينة، وبالأخص في القسم الغربيّ منها، إلا أنه لم يتوان عن إرسال المؤازرات إلى ريف حلب الجنوبيّ وريفها الشماليّ. وكذلك كان من أبرز فصائل جيش المجاهدين الذي قاتل تنظيم الدولة الإسلامية ودحره من حلب».

وأضاف حلاق: «تجمع فاستقم من التجمعات العسكرية الثورية التي بدأت بدون أجندة واستمرّت بنفس الوتيرة. وهو التجمع الأقوى الذي يحوي عناصر من حلب المدينة والريف معاً. وقدّم ومازال يقدّم قوافل الشهداء. وهو التجمع الوحيد الذي استمر في رفع علم الثورة وحمايته والدفاع عن النشطاء والثوار الأوائل في وجه المتطرفين».

أما الصحفي أحمد بريمو فاعتبر أن تجمع فاستقم كما أمرت الحصن المنيع والملاذ الآمن للناشطين المدنيين الذين ما زالوا يفضلون البقاء في حلب. ويروي ما حصل معه حين قام تنظيم «داعش» باختطافه قائلاً: «عندما قام عناصر داعش باختطافي من منزلي الواقع في منطقةٍ تدخل ضمن نفوذ التجمع قام عناصر أحد الحواجز التابعة له بمحاولة إفشال عملية الخطف، واشتبكوا مع عناصر التنظيم، وأصيب في ذلك اليوم عددٌ من عناصر التجمع بنيران داعش. وعلى الرغم من أن داعش كانت آنذاك في أوج قوتها ولا يجرؤ أحدٌ على محاسبتها أو سؤالها عن أيّ انتهاكٍ تقوم به بحقّ المدنيين أو الناشطين، إلا أن تجمع فاستقم كان على قدر المسؤولية التي وضع نفسه أمامها وحاول منعهم بقوة السلاح».

وأضاف بريمو: «إلى اليوم يستمرّ التجمع بالقيام بمسؤولياته في حماية المدنيين بشكل عام والناشطين بشكل خاصّ. فالمناطق الغربية من مدينة حلب، والتي تقع في نفوذ التجمع ونطاق سيطرته، تعدّ ملاذ الناشطين وأكثرها أماناً بالنسبة إليهم».

بدوره قال مدير مكتب الخدمات في المجلس المحليّ لمدينة حلب بدورته السابقة، أحمد ديري، إن التجمع قدّم العديد من التسهيلات للمجلس، وأبرزها تسليم قطاع حيّ الأنصاري، بآلياته ومعدّاته ومقرّاته، للإدارة المدنية في المجلس، بعد تحرير القطاع من تنظيم داعش الذي كان يحتله. لافتاً إلى أن قيادة التجمع ضغطت على أحد الفصائل الذي كان يريد الاستئثار بإدارة القطاع وإتباعه له، وأصرّ التجمع على إعادته وتفعيله من قبل المجلس المحليّ لتخديم المدنيين.

إرهابنا جيد.. إرهابكم سيئ

بكر صدقي

تم تكليف الأردن، من قبل «مجموعة فيينا»، بتحديد قوائم بالمنظمات الإرهابية العاملة على الأراضي السورية، وهو يتعرّض لضغوط مختلف الدول حول مضمونها. وقيل في وقتٍ سابق إنه أدرج 160 فصيلاً من المجموعات المسلحة بوصفها منظماتٍ إرهابية، يقترح قرار مجلس الأمن 2254 عدم شملها بوقف إطلاق النار الذي من المفترض أن يرافق تقدم العملية السياسية. ثم كذَّبَ الأردنيون الخبر قائلين إن العدد المذكور هو جردةٌ بجميع الفصائل التي طالبت مختلف الدول المعنية بإدراجها، على أن يتمّ التوافق على لائحةٍ واحدةٍ يتقاطع عليها جميع أعضاء مجموعة فيينا. من المرجح أن التكذيب الأردنيّ صحيح، وإلا فإن العدد 160 كفيلٌ بإفراغ وقف إطلاق النار المفترض من أيّ معنى.

لكن هذا العدد (160) يعطينا، بالمقابل، فكرةً جيدةً عن مدى الاختلافات بين الأطراف المعنية على تحديد المنظمات الإرهابية، ومن ورائها على تعريف الإرهاب نفسه، أي عن مدى التسييس الذي يقسم الإرهابيين إلى جيدين وسيئين، أو أخيار وأشرار، أو نافعين وضارّين، وفقاً لكلّ طرف.

ويذكّرنا الخلاف الحاليّ بالملعونة روحه حافظ الأسد، «بطل» مجازر حماة وتدمر وجسر الشغور وطرابلس وتل الزعتر، في دعواته المتكررة لـ«المجتمع الدوليّ»، في ثمانينات القرن الماضي وتسعيناته، لـ«عقد مؤتمرٍ دوليٍّ لتعريف الإرهاب»، مقدّماً رأيه في هذا الموضوع في كلّ خطابٍ أو مقابلةٍ صحفيةٍ معه، في ذلك الوقت، بالقول إن «حركات التحرّر الوطنيّ ضد الاحتلال لا يمكن اعتبارها إرهاباً».

على خطا هذا الجزار الملعونة روحه، هدّد وزير الخارجية الإيرانيّ جواد ظريف بالانسحاب من مؤتمر فيينا الثاني، حين اقترحت بعض الدول اسمي حزب الله الإيرانيّ في لبنان وفيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيرانيّ لإضافتهما على قوائم الإرهاب. ولم يلق الاقتراح التركيّ بإضافة حزب الاتحاد الديموقراطيّ، وقوات حماية الشعب التابعة له، إلى القوائم المذكورة آذاناً صاغية لدى الدول الأخرى.

في الوقت الذي نجد فيه إجماعاً، بين أعضاء مجموعة فيينا على الأقل، على الصفة الإرهابية لكلٍّ من تنظيم الدولة (داعش) وجبهة النصرة (الفرع السوريّ لمنظمة القاعدة)، يدور صراعٌ حادٌّ بين الدول والمحاور الفاعلة في الصراع السوريّ على توصيف ما تبقى من مجموعاتٍ مسلحة، جهاديةً كانت أو غير ذلك. وتبقى قوات النظام الكيماويّ وميليشياته الرديفة (قوّات الدفاع الوطنيّ وكتائب البعث والميليشيات العلوية المسماة بـ«المقاومة السورية» وغيرها) خارج الخلاف، كما لو كانت مجموعة فيينا متفقةً بالإجماع على شرعيتها بوصفها هي الدولة. والحال أن الإرهاب الذي مارسه النظام، بمختلف تسميات القوات التابعة له، يفوق كلّ تصورٍ أو خيالٍ مريض، من مجازر موصوفةٍ بحقّ السكان المدنيين إلى إعداماتٍ داخل السجون والمعتقلات إلى ضرب المناطق السكنية بالبراميل البدائية العمياء وصولاً إلى استخدام السلاح الكيماويّ، وتفوَّقَ في وحشيته على إرهاب أيّ مجموعاتٍ مسلحةٍ بما في ذلك داعش المعتبر دولياً «هو الإرهاب».

هل للإرهاب معايير محددة يمكن التوافق عليها بصرف النظر عن سياسات الدول ومصالحها وهواجسها؟ هل هو كلّ عنفٍ منظم يستهدف تحقيق أهدافٍ سياسية؟ أليست الدول قائمةً تعريفاً على احتكار العنف والعنف المنظم؟ متى يعتبر عنفها إرهاب دولة، ومتى يعتبر فرضاً للقانون لمصلحة المجتمع؟ ومتى يحقّ للقوى الاجتماعية أن تمارس العنف لتحقيق مصالحها، في وجه قوى اجتماعيةٍ أخرى أو في وجه الدولة نفسها، ومتى يعتبر هذا المسلك إرهاباً يستوجب مكافحته والقضاء عليه؟

هي أسئلةٌ خلافيةٌ كما نرى. التاريخ مجبولٌ بالعنف إلى حدٍّ مرعب. وإذا كان مفهوم الإرهاب قد ظهر في وقتٍ متأخرٍ محمّلاً بالقيمة السلبية، فلأنه نتاج هيمنةٍ يمارسها الأقوياء على الضعفاء، نتاج صراعٍ على المعنى، الفائز فيه يضمن لنفسه الأفضلية مسبقاً في الصراع الماديّ. كمن يشارك في سباقٍ وهو متقدمٌ، سلفاً، بكيلومتراتٍ عن منافسيه. وهكذا نأتي إلى الصراع في سوريا لنجد أن المطلوب من الأردن أن يحدد المجموعات الإرهابية من بين الفصائل التي تقاتل النظام الكيماوي حصراً، و«في الجيب» سلفاً جبهة النصرة، إذا استثنينا داعش.

وها هو الروسيّ يبدأ «اللعب» باغتيال زهران علوش الذي يتمثل فصيله، جيش الإسلام، في الهيئة العليا للمفاوضات المنبثقة عن مؤتمر الرياض للمعارضة السورية، ويطالب بإدراج كلٍّ من جيش الإسلام وأحرار الشام في قائمة المنظمات الإرهابية، ليستبعدهما من العملية السياسية التي كانت أصلاً خطةً روسية.

ولكن ما فائدة أيّ كلام عن التنازع على قوائم المنظمات الإرهابية في الوقت الذي يقصف فيه طيران روسيا - الدولة دائمة العضوية في مجلس الأمن - مخيماً للاجئين السوريين (مخيم عابدين) في ريف إدلب الجنوبيّ، عن سابق ترصّدٍ (بطائرة استطلاع) وتصميم؟

ويأتي من يلومون معارضين سوريين يظهرون شيئاً من الإيجابية تجاه جبهة النصرة، معتبرين ذلك من أسباب إحجام ما كان يسمّى «أصدقاء الشعب السوري» عن دعم فعالٍ للمعارضة.

داعش هي اليوم المشجب الذي يعلق عليه كل إرهابيو العالم، دولاً أو مجموعات أو أفراداً، قذاراتهم، ويبرّرون به إرهابهم.

روسيا «مصنع الاستبداد»

أحمد عيشة

منذ تأسيس الإمبراطورية الروسية وحتى انهيارها، كان الهمّ الرئيسيّ لقياصرتها من آل رومانوف هو اللحاق بتقدم أوروبا وتسخير هذا التقدم لنزعاتهم التوسعية. فسعوا إلى نقل قيم الحداثة والتنوير الغربية، لكن بوسائل عنيفة وقسرية مفروضة من الأعلى، تحفظ لهم السيطرة والهيمنة، دون إشراك المجتمع في هذه العملية التاريخية الكبيرة.

وفق تلك العقلية الثنائية؛ الدونية تجاه الغرب والتعالي على الشعب الروسي، ولدت وكبرت وانهارت الإمبراطورية وأحلامها التي لم تغب عنها أبداً نزعة التوسع العسكريّ والحروب مع الجيران. تلك النزعة التي استمرّت حتى عهد القيصر الأخير نيكولاي الثاني الذي زجّ بلاده في الحرب العالمية الأولى، التي حصدت أكثر من ثلاثة ملايين روسيٍّ، فكانت نهاية الإمبراطورية على يد الثورة التي تصدّرها (في شباط 1917) تيارٌ من الاشتراكيين الثوريين الديمقراطيين لغاية نهاية العام عندما استطاع البلاشفة، بزعامة لينين، انتزاع السلطة من رفاقهم في الحزب. وسرعان ما استطاع ستالين الانقلاب على خط لينين بحجة العدوان الخارجيّ وتهديد الثورة، فلجأ إلى التخلص من منافسيه، مؤسّساً لبداية السلطة الدكتاتورية في الحزب والبلاد، والتي أودت بحياة الملايين.

نجح ستالين، بالحديد والنار، في تحقيق جزءٍ من أحلام أسلافه القياصرة بنقل روسيا من بلدٍ متخلفٍ زراعيٍّ إلى بلدٍ صناعيٍّ متقدم ولكن في المجال العسكري فقط، بينما ظلّت بقية القطاعات ترزح تحت حالة من التخلف بمختلف أشكاله. لكن حكم الرجل الفولاذيّ كرّس قضية العداء للحرية باعتبارها نزعةً برجوازيةً ترعاها الدول الإمبريالية، مبرّراً بذلك عمليات قتله الوحشية، إضافةً إلى دور الزعيم الذي لا يخطئ. استمرّ هذا النهج داخلياً وخارجياً، ففي الداخل تم اجتياح المجتمع بكافة مفاصله وسحقه تحت جزمة الأمين العام والمخابرات، وخارجياً بدعم الأنظمة الديكتاتورية في العالم ومساعدتها على تأسيس الأطر التنظيمية الداعمة للاستبداد من أحزاب كارتونيةٍ ومنظماتٍ شعبيةٍ تتغلغل في بنى المجتمع لتفككه وتدمره وأخيراً تعيد صياغته وفق توجهات الزعيم وأجهزته الأمنية.

مع نهاية ثمانينات القرن الماضي وتفكك البلد الأم «المرضع» لمنظومته الاشتراكية، وما رافق ذلك وتلاه من تفكك دوله التابعة، تحت دوافع وحاجات ومشاكل حقيقيةٍ وأخرى خارجية؛ انحدرت تلك البلاد إلى منظومةٍ منفلتةٍ من القيم والسياسات والعلاقات الخارجية، وتحت قيادة شخصياتٍ من الحزب القائد ذاته. فبوريس يلتسين، الذي كان عضو المكتب السياسيّ للحزب الشيوعيّ السوفييتيّ ومسؤول منظمة موسكو، صار الزعيم المنتخب الذي سينقل روسيا نحو التحرّر من الاستبداد! فأضعف دور الدولة بالكامل لصالح العصابات المنظمة (المافيا)، عارضاً كلّ شيءٍ للبيع بما فيه كرامته.

وفي اليوم الأخير من 1999 تقدم يلتسين باستقالته لرئيس حكومته فلاديمير بوتين؛ الشخصية الآتية من قلب الحزب ومن أقذر أجهزة السلطة: المخابرات، والذي قضى خمس سنواتٍ في ألمانيا الشرقية حيث كان يتمّ التخطيط للمخابرات ومركز علاقتهم مع مخابرات الأنظمة الديكتاتورية في العالم، ليصبح بوتين رئيساً بالوكالة، ثم ليتقلدها بشكلٍ رسميٍّ وشرعيٍّ ويستمرّ في قيادتها حتى تاريخنا، سواء كرئيس للحكومة أو للجمهورية، بالتناوب مع ديمتري ميدفيديف.

إذاً، لم يشهد المجتمع الروسيّ حركة إصلاح دينيةً كنظيرتها الأوربية تعطي استقلاليةً لهذه المؤسسة الكبيرة وتحرّرها من سيطرة السلطة. وأفشل الحلمُ الامبراطوريّ والانشغال بالحروب والتوسع الخارجيّ، وقمع كلّ حركات التنوير، عمليةَ التحديث التي ظلت قاصرةً بلا مؤسسات. فنتج عن ذلك عقلٌ متعالٍ استبداديٌّ استمرّ مع كلّ السلطات والحكام بغض النظر عن الأيديولوجية السائدة. فعبر التاريخ كانت الحروب محور سياسة القصر، وما سياسة الحرب الباردة التي سادت لأكثر من خمسين عاماً، ودعم الاتحاد السوفييتي لكلّ الأنظمة الديكتاتورية في العالم، وخاصّةً في بلادنا، وأنظمة الموت الشامل في شرق آسيا، ناهيك عن تبنيه المطلق لنظام كوبا؛ إلا تجلٍ واضح لنزعة الاستبداد المعممة لدى الروس. وعدا عن قيادة الكرملين، هناك المنظمات التي أنتجها الاستبداد وتماهت معه، مثل اتحادات الكتاب والرياضيين والفنانين، والكنيسة، ناهيك عن «نواب» الشعب الذي يقدمون التهاني والدعم لانتصارات وإنجازات الأنظمة الديكتاتورية في العالم.

وإنّ ما واجهناه، نحن السوريين، خلال الأعوام الخمسة المنصرمة، من موقف روسيا الداعم المطلق لنظام الطغمة في مواجهة الشعب، على مختلف الأصعدة الدبلوماسية والإعلامية والسياسية والعسكرية، وعبر قطاعاتٍ مجتمعيةٍ من أحزاب ونوّاب وكتاب وفنانين ورجال دين وغيرهم؛ ليس إلا تعبيراً عن العقلية الاستبدادية الروسية لا تعبيراً عن مصالح روسيا، فهناك طرقٌ عديدةٌ لتأمينها. لكن يبدو أن القادة الروس لا يبحثون عن مصالحهم إلا مع الديكتاتوريين وعلى حساب الشعوب، غير مدركين، أو ضاربين بعرض الحائط، تطلعات الشعوب وأولها الشعب الروسيّ.

مأساة عائلةٍ سوريةٍ أعمقُ من الصورة الرمزية لطفلٍ ممدّدٍ على الشاطئ (1 من 2)

آن برنارد
نيويورك تايمز/ 27 كانون الأول 2015
ترجمة مأمون حلبي

عندما رمت الأمواج الجسد الصغير لآلان الكردي على أحد الشواطئ التركية، وأجبرت العالم أن يستوعب آلام اللاجئين السوريين، كان الطفل البالغ سنتين من العمر مجرّد فردٍ في عائلةٍ تحاول الفرار بعد أن فرّقتها سنوات الاضطرابات العاتية الخمس.

عندما رفع ضابطٌ تركيٌّ الطفل من بين الأمواج السطحية على حافة المتوسط كان ياسر، أحد أبناء عم آلان، وهو دون العشرين، وحيداً في حافلةٍ في المجر، بعد أن هرب من دمشق ليفلت من الخدمة الإلزامية. هو أيضاً خرج من تركيا على متن أحد قوارب المهرّبين. إحدى العمات كانت ترعى طفلاً مريضاً في إسطنبول، بينما كان ابنها وابنتها يعملان لوقتٍ طويلٍ في أحد المحلات كي يستطيعا تأمين معيشة العائلة، وكثيرٌ من الأقرباء الآخرين كانوا قد فرّوا من الحرب في سوريا أو كانوا يضعون خططاً لفرار. وبعد أن هزّت صورة آلان العالم بأسابيع فقط جهزت عمةٌ أخرى نفسها لتفعل ما وعدت نفسها بتجنبه: ركبت البحر مع أربعةٍ من أبنائها سالكةً الرحلة الخطيرة نفسها. تقول ابنتها، 15 عاماً: «نموت معاً أو نعيش معاً ونبني مستقبلاً لأنفسنا»، وتصل إلى نتيجةٍ -شأن مئات آلاف السوريين- مفادها أنه يستحيل العودة، وأن الطريق إلى الأمان يمرّ بمخاطر كبيرة.

كان آلان، الذي غرق معه أخوه وأمه، من عائلةٍ كبيرةٍ مشتتةٍ في أنحاء سوريا، تنتمي إلى الأقلية الكردية التي عانت من اضطهادٍ طويل الأمد. لكن، بالنسبة إلى معظم أقربائه، كانت تلك الهوية ثانويةً بالقياس إلى روح وأخلاقيات العاصمة دمشق التي نشأوا وكبروا فيها. فهم يكادون لا يتكلمون الكردية، ويعرفهم الآخرون بصفتهم سوريين، ولا ينتسبون إلى أيّ فصيل. لهذا، عندما اندلعت الحرب وأصبحت الروابط السياسية والطائفة والانتماء العرقيّ مسائل حياةٍ أو موت، كانوا وحدهم.

ولد جدُّ آلان في كوباني، وهي منطقةٌ كرديةٌ في غالبيتها. بعد تأديته الخدمة الإلزامية انتقل إلى دمشق للبحث عن عملٍ واستقرّ في حيّ ركن الدين ذي الأغلبية الكردية. وهناك افتتح صالون حلاقةٍ وتزوج من امرأةٍ كرديةٍ كانت تعدّ نفسها دمشقيةً بالدرجة الأولى. بسرعةٍ توسع حيّ ركن الدين بسكنٍ غير منظمٍ وأزقةٍ ضيقةٍ تغصّ بعمال ريفيين فقراء؛ مكانٌ سيندلع فيه التمرد لاحقاً. رُزق جدّ آلان بستة أولاد، معظمهم تركوا المدرسة بعد الصف التاسع ليتعلموا مهنة الحلاقة. يتذكر الأبناء أنهم كانوا يعيشون حياةً متواضعة، ودون أن يتأثروا بالتوترات بين الحكومة والأكراد. كانوا يقضون الصيف في كوباني لكنهم كانوا يعدّون أنفسهم من أبناء المدينة. فاطمة، الابنة الكبرى، كانت أول من هاجر. في عام 1992 رحلت إلى كندا. أثناء عملها الليليّ في منشأةٍ للطباعة استرعت انتباه إحدى رئيسات العمل الطيبات. «قالت لي رئيستي: «في كلّ ليلةٍ سأعلمكِ 10 كلماتٍ إنكليزية»»، تتذكر فاطمة. «بقية ما أعرفه تعلمته من مشاهدة «بارني» مع ابني». أوصلت اللغة الإنكليزية فاطمة إلى شهادة مزينة شعر، وعملٍ في أرقى الصالونات والحصول على الجنسية؛ نجاحاتٌ جعلت رحلات العائلة اللاحقة ممكنة. فاطمة، التي كان لها حضورٌ قويٌّ، أصبحت بالنسبة إلى إخوتها وأخواتها مصدر نصح ومعلوماتٍ، ومصدر نقودٍ في الحالات الطارئة. وعندما اندلعت الحرب أصبحت من أشدّ الداعمين لهم، وأمدّتهم بالخطط والوسائل للبحث عن اللجوء في الغرب. لكن، قبل الحرب، لم يكن بقية آل كردي يفكرون في مغادرة سوريا. فقد كانوا يمدّون جذورهم في تشكيلة الجماعات التي كانت تمنح سوريا ثراءها وغناها. كان لديهم أنسباء وأملاك في ضواحي دمشق وكوباني ومخيم اليرموك؛ وكلها أماكن سينهكها ويدمرها العنف بعد وقتٍ قصير.

في ربيع 2011 وصلت موجات النزاع الزاحفة إلى دمشق، عندما كان والد آلان سيرزق بطفلٍ من زوجته ريحانة،

وهي ابنة عمٍّ له. عندما بدأت الاحتجاجات ضد حكومة بشار الأسد تنتشر عادت ريحانة إلى كوباني لتلد غالب، شقيق آلان الأكبر. بعض أفراد آل كردي تعاطفوا مع المظاهرات، التي كانت سلميةً في البداية، لكن أغلبيتهم تجنبوا الانخراط فيها. عمّمت الحكومة قمعها على كلّ أنحاء البلاد، وبسرعةٍ أصبح الحيّ تحت الضغط. قوات الأمن، القادرة دوماً على اعتقال الناس متى شاءت، أصبحت أكثر توتراً وأسرعوا بجعل الأكراد أو أيّ شخص آخر، دون أن تكون له علاقاتٌ سياسية، كبش فداء.

يعود عبد الله بذاكرته إلى الوراء: «بعد أن بدأت الثورة خبرتُ الفرق بيني وبين الآخرين؛ العنصرية. يستطيع أيّ شرطيٍّ بسيط اتهامك. إن كتب أحدٌ ما تقريراً كاذباً ضدك قائلاً إن هذا الكرديّ فعل كذا وكذا فلن تعود أبداً». ذات يوم اقتحم بعض الضباط منزل بعض أنسباء آل كردي وأخذوا شقيقين لم تكن لهما توجهاتٌ سياسيةٌ معروفة، ومن حينها انقطعت أخبارهما. بعد ذلك شاهد شيركو، ابن عم آلان، صديقاً يموت بعد أن أصابه شرطيٌّ بطلقةٍ في رقبته بينما كان يتظاهر خارج المدرسة.

بدأت مدفعية النظام قصف ضواحي دمشق المتمرّدة، التي كان يجري فيها عصيانٌ مسلح، من قواعد في أعلى جبل قاسيون الواقع فوق منحدرات ركن الدين. كانت مدافع الجيش من القرب إلى درجة أن ضغط حركة الهواء تسبّب في تشقق جدارٍ أحد بيوت العائلة. كان آل كردي أيضاً على الطرف الذي يتلقى القصف في ضواحي الغوطة الغربية، هناك كانت تعيش إحدى عمات آلان مع عائلتها. واندلعت اشتباكاتٌ في مخيم اليرموك، الذي كانت تسكن فيه عمةٌ أخرى مع زوجها الفلسطينيّ الذي جرح بسبب القصف. نزحت تلك العمتان مع عائلتيهما إلى ركن الدين، لكنهما بالكاد أحستا أنهما في وضعٍ أكثر أماناً. أتى الهروب إلى كوباني بعد أن شهدَ شيركو وابن عمٍّ آخر تفجيراً انتحارياً في الشارع: علق اللحم على أحد الجدران، واستقرّت شظايا في ساق أحد الفتيَين. في المشفى استجوبهما مسؤولون أمنيون، وكانا خائفيَن من أن يتكلما عما شاهداه. بدأت الشرطة السرية تطلب التحدث إلى رجال آل كردي. «دفعني هذا الأمر إلى القول: «فلنذهب. فلنغادر»، تتذكر غصون، والدة شيركو. «الرحيل أفضل من أن يتمّ أخذنا». بدت كوباني ملاذاً آمناً حينها لأن الأكراد هناك حاولوا إقامة منطقةٍ آمنةٍ تتمتع بشبه استقلالٍ ذاتيّ. لكن عبد الله تحسّر قائلاً: "لم أفكر بتلك الطريقة».

في البداية كانت المشكلات محض اقتصادية. كانت فرص العمل قليلةً في كوباني. ذهب عبد الله إلى إسطنبول ليعمل، في حين تهتم زوجته بتربية ابنهما غالب، وفيما بعد ولدت آلان. وكانت غصون، زوجة أخيه، تكسب النقود من جلب ملابس من دمشق وبيعها. تتذكر فيما بعد، وهي في شقتها الصغيرة في إسطنبول: «عانيت كثيراً لأني امرأةٌ أنيقةٌ جداً». برز تهديدٌ جديدٌ عندما أعلن تنظيم الدولة الإسلامية المتطرّف عن قيام دولة، وبدأ يلحق الأذى بالأكراد والأقليات الأخرى. أصبحت أسفار غصون خطِرة. لغتها العربية التي لا رطانة فيها ولباسها المحافظ أخفيا كونها كرديةً عند نقاط تفتيش «الدولة الإسلامية». لكن جعلاها مشتبهاً بها عند الحواجز الكردية.

في أيلول 2014 كان تنظيم الدولة يقصف كوباني ففرّت العائلات نحو تركيا، وبعضها عَلِق بين مقاتلي تنظيم الدولة والسياج الحدوديّ. هناك أمسك مقاتلون ليسوا سوريين بزوج غصون. «ضربوه مراراً ببندقية أمامي. بعد ذلك أعطوا ابني شيركو، البالغ حينها 15 عاماً، بندقيةً وطلبوا منه أن يطلق النار على والده. واستمرّوا في القول إننا كفار. سقطتُ على الأرض وأنا أتوسل إليهم. ولسبب ما رحمونا». أمضت العائلة أياماً وهي تبحث عن معبر، مع مئاتٍ من الأكراد الآخرين. حاولوا أخيراً أن يخترقوا الحدود، فضرب رجال الشرطة التركية معظمهم وأعادوهم من حيث أتوا، غير أن امرأةً كرديةً على الجانب التركيّ خبّأت عائلة غصون في حظيرة أبقارها. هناك، في كوباني، كروم الزيتون التي يملكها آل كردي أحرقت، وبيوتهم دمّرت، وقتل 18 شخصاً من أقربائهم. اتجه كثيرٌ من الناجين إلى إسطنبول، لتبدأ جولةٌ جديدةٌ من المحن.

استطاع عبد الله أن يرسل نقوداً من إسطنبول بالعمل والنوم في ورشة لصنع الملابس. لكن العبء صار ثقيلاً عندما انضمّت إليه زوجته ومعها غالب وآلان. فالشقق التي يستطيع أن يدفع إيجارها كانت بعيدةً جداً عن مكان عمله، مما اضطرّه إلى أن يترك ورشة الملابس ويعمل في رفع أكياس الإسمنت التي يبلغ وزن الواحد منها قرابة 100 كغ مقابل 9 دولاراتٍ يومياً في عملٍ يدوم 12 ساعة. هيفرون، شقيقة عبد الله، كانت تعمل في تنظيف غرف الفنادق. غصون، زوجة أخيه محمد، كانت تغسل الصحون في أحد المطاعم، وابنها شيركو كان يعمل في محلّ ألبسةٍ بأجرٍ قليل. أمل الهجرة الشرعية إلى الغرب بدا بعيداً. في كندا حاولت فاطمة، عمة آلان، أن تساعد شقيقها محمد وزوجته وأولاده الخمسة في عملية اللجوء، لكن كندا كانت تطلب إثباتاً على أنهم لاجئون. تمنح تركيا السوريين وضعية الضيوف فقط، وهذا ما لم تكن كندا تقبله. تقدّمت هيفرون بطلب لإعادة التوطين في ألمانيا. الصيف الماضي تلقت موعداً من أجل مقابلتها الأولى: 27 أيلول 2016.

هيفارون كردي عمة آلان في مخيم Bramsche للاجئين في ألمانيا

غرفةٌ تطلّ على الحرب
عشرة أيامٍ في سوريا الجيش الحرّ

محمد عثمان

لم تغب عن ذاكرة الكثير من الثوار حادثة مقتل الصحفيَّين، المراسلة الحربية الأمريكية ماري كولفان والمصوّر الفرنسيّ ريمي أوشليك، إثر قصف قوّات النظام المركز الإعلاميّ لحيّ باب عمرو الحمصيّ الشهير. وقعت تلك الحادثة صباح 22 شباط 2012. الصحافية الفرنسية إيديت بوفييه كانت هناك أيضاً، وأصيبت بفعل القصف الذي أودى بزميليها. وهي تسجّل شهادتها في هذا الكتاب الذي ظهر بالفرنسية في أواخر 2012، وبالعربية عام 2014، ضمن سلسلة «شهادات سورية» (8) التي أصدرها بيت المواطن للنشر والتوزيع.

كانت بوفييه قد وصلت للتوّ. وبدلاً من أن تقضي وقتها في التنقل النشط كمراسلة كانت قد أصيبت فوراً وتعيّن إخراجها إلى خارج البلاد لإجراء عملية لم تكن في إمكان أطباء المشفى الميدانيّ بتجهيزاته المتواضعة. ولكن الأيام التي قضتها بانتظار الخروج، وفي الطريق إليه، كانت كافية لرسم صورة غنية عن الثورة وقتها، ولا سيما في محافظة حمص. إذ كان قد سبق لموفدة لوفيغارو أن دخلت إلى سورية في كانون الأول السابق، ولكن إلى ريف إدلب، حيث تشكلت أولى مجموعات الجيش الحرّ لمقاومة العدوان المستمرّ لقوّات النظام، فعبرت بوفييه الحدود من تركيا لترصد بواكير هذا التشكل. كانت التجربة مخيفة بالتأكيد، ولكنها لا تقارن بتجربتها الآن في حمص، مكسورة الساق تبحث عن طريق للعودة إلى الحدود اللبنانية دون أن تقع في يد النظام الذي كان قد قيّد عمل مراسلي وسائل الإعلام العالمية في البلاد، واعتبر دخولهم بصحبة الثوار عملاً غير قانونيّ.

وبالمقابل كان المواطنون الصحفيون والمقاتلون السوريون، بالإضافة إلى سكان المناطق التي وقعت تحت قصف النظام، يخاطرون بأرواحهم ويقدّمون كلّ ما يلزم لتسهيل عمل هؤلاء المراسلين، أملاً في أن تغيّر تقاريرهم من مواقف دول العالم وتدفعها إلى وقف المجزرة. تقول بوفييه في مقدّمة كتابها إنها كتبته «كي لا أسمع أحداً يقول: لم نكن نعلم. كي لا تُنسى أولئك النسوة، أولئك الأطفال وأولئك الرجال، الشباب والشيوخ، المتمرّدين، الشجعان، تلك الإنسانية المهانة والمذبوحة، أولئك المجهولين الذين مدّوا لنا أيديهم وآوونا مخاطرين بحياتهم، وابتسموا، وشرحوا تاريخهم، من أين أتوا ولماذا يناضلون. أولئك الرجال والنساء، الفقراء غالباً، الذين لا يقاتلون من أجل المال والجاه، بل من أجل الحرّية، هذا الأمل الذي لا يمكن تدميره، وسط الفوضى، في مستقبل أفضل».

تروي الصحافية الفرنسية ملحمة طريقها المحفوف بالمخاطر، وأبطاله المتعدّدين المجهولين، يمشي بها كلٌّ منهم في المساحة التي يتقن التحرّك فيها ويسلمها لاستضافة عائلة أخرى ومقاتلين جدد. كما تروي ما فعله النظام عندما شاع على وسائل الإعلام الغربية خبر مقتل زميليها وبقائها تحت الخطر، بصحبة ثلاثة زملاء أجانب آخرين. فقد أشاعت قنواته أن الصحفيين مختطفون لدى «العصابات الإرهابية»، مما دفع الناشطين إلى الطلب من ضيوفهم تسجيل شريطٍ ليبث على قناة فرانس 24 الإخبارية، يقولون فيه إنهم ليسوا محتجزين لدى الجيش

بوفييه أول وصولها الأراضي الفرنسية

السوريّ الحرّ، وإن جيش النظام هو من يقصف عليهم وعلى سكان الحيّ. سجّل المراسلون الشريط وطالبوا بإيقاف القصف وبإقامة ممرٍّ إنسانيٍّ يخليهم مع جميع الجرحى والأسر القابعة في المخابئ المرتجلة.

وبعد ضغوطٍ من أعلى المستويات على النظام لإرسال قافلة من الصليب الأحمر الدوليّ قدمت قافلة الهلال الأحمر العربيّ السوريّ إلى الحيّ لنقل الصحفيين فقط. وقال لهم رئيس الهلال: «إن صعدتم إلى السيارة معنا سيكون عليكم أن تتناقشوا مع السلطات في دمشق، سيكون عليكم أن تفسّروا أسباب دخولكم غير القانونيّ للأراضي السورية». يشكّ الصحفيون في نوايا المنظمة المحلية الممسوكة بقوّةٍ من السلطات، ويرفضون التحرّك إلا بصحبة ممثلٍ عن المنظمة الدولية الأم، فتغادر سيارات الهلال المنطقة مع وعدٍ بترتيب الأمر مع مسؤولة الصليب الأحمر والعودة بصحبتها. ولكن في الحقيقة، وبدلاً من النجدة، القنابل هي التي تعود، وبإلحاح ودقةٍ أكثر. كان المطلقون يعرفون الآن مكان المشفى الميدانيّ، كما لو أن فرق الهلال قد أعطتهم الإحداثيات!

وأثناء المماطلات المعهودة للنظام، وزعمه أنه يحاول إخراج المراسلين، كان قد وعد مجموعةً من أربعين عسكرياً من الفرقة الرابعة، المكلفة بالهجوم على بابا عمرو، بمليون دولار مقابل القضاء عليهم، في عمليةٍ أسماها «مطاردة الكلاب»، كما أفاد أحد المنشقين لاحقاً!

الكلية الحربية... مصنع التوابيت

بخلاف الشباب السوريين الآخرين، الباحثين عن التسريح من الخدمة الإلزامية أو المنشقين عنها أو المتهرّبين من أدائها ولو على متن البلم إلى أوربا، يبدو المتطوّعون الجدد في الكلية الحربية قادمين من عالمٍ آخر!

فعلى صفحة الفيسبوك الخاصة بالدورة 71 من هذه الكلية، والمفترض أن تلتحق بها في مطلع 2016، يتقافز هؤلاء اليافعون بحماس، مرحين وكأنهم سيلتحقون بحياة جامعيةٍ بهيجة. ولا تبدو لهذا الحماس صلةٌ بدوافع سياسيةٍ أو «وطنية»، كما يحبّ أدمن الصفحة أن يذكّر في منشوراته المصحوبة دوماً بصور بشار وآل الأسد وعلم النظام... إلخ. إذ كما يتجاهل هؤلاء «الأغرار» ما هم مقدمون عليه من مخاطر بالتطوّع كضباطٍ في أتون «حربٍ» ضارية؛ تغيب عن تعليقاتهم آثار الدعاية الرسمية المفترض أنها قادتهم إلى هذا الخيار.

أنشئت الصفحة بالتزامن مع فتح باب الانتساب، وليس لها جمهورٌ تقريباً سوى السائلين عن الشروط والأوراق اللازمة. يكرّر الأدمن دون كلل: باب التطوّع مفتوحٌ لحملة الشهادة الثانوية 2015 بكافة فروعها، دون تحديد عام الحصول عليها ودون تحديد معدلٍ للعلامات. يجب أن لا يتجاوز عمر المنتسب 26 عاماً. اختصرت مدّة الدراسة هذا العام، لأول مرّة، إلى سنتين بدل ثلاث سنوات سابقاً. يقضي الطلاب سنةً دراسيةً عامةً تنتهي بامتحانات، تليها السنة الثانية التي يتوزّعون فيها على اختصاصات المدرعات والمشاة والمدفعية... إلخ. يبدأ راتب طالب الضابط بعد 4 أشهر من الدراسة من مبلغ 20000 ليرة، تضاف إليه «المنحة» بعد شهرين من ذلك. الأولوية لأبناء الضباط والشهداء. «الدراسة الأمنية» هي الأساس وباقي الفحوصات «شكلية». سيتمّ استيعاب معظم المتقدّمين في هذا العام بسبب العدد الكبير المطلوب. تمّ تمديد الوقت المتاح للانتساب...

وعبثاً يحاول الأدمن بثّ الإيقاع الحربيّ في الصفحة: «جنووووود الأسددددد قادموووووون»؛ «الجيش العربي السوري شارة النصر الحاسم»؛ «أبناء القائد الخالد حافظ الأسد». إذ ينشغل اليافعون بالأوراق، التقديم، موافقة الفرع 93، التبليغات، ويتفاعلون أحياناً حين يذكّرهم بأنهم «أبناء علي الميامين». ورغم ذلك لا ينقص من حماسهم للالتحاق شيء، بخلاف متطوّعين سابقين يدخلون أحياناً للترحيب بالمستجدين ويوصونهم بأن يستمتعوا بالأيام المتبقية لهم من الحياة المدنية، وبأن يملّوا أنظارهم من البطاقة الشخصية، وبأن يشبعوا من شرب المتة.

وبحسب دورة المتقدّم يخفت حماسه؛ فإذ يستعدّ أبناء الدورة 70 لاستقبال زملائهم الجدد (البني، بحسب الوصف الدارج انطلاقاً من لون البدلة) توجّه صفحتهم الخاصّة تحيةً «لكل بنت حبيبا عسكري... وبتنطر بالشهر والشهرين لتشوفو مرّة... ولا بتزعلو ولا بتخونو وبتحافظ عليه...». أما صفحة الدورة 69، التي تخرّجت للتوّ، فتكتب مخاطبةً السوريّ المدنيّ: «ناقصك غاز؟ في عسكري عم يحارب عالجبهة ناقصو رصاص». في حين نعثر على صفحتين للدورة 68؛ الأقدم منهما باسم «الدورة 68 الأسطورة»، والأحدث باسم «شهداء الدورة 68 حربية». بينما تزدان صفحة الدورة 67 بصور هؤلاء الملازمين الشرف، وهو وصفٌ تمنحه السلطة للعسكريين الذين يقتلون في معاركها. ويكتب أدمن الصفحة: «الله يرحم شهداء هي الدورة، ويحمي جميع ضباطها الباقين». في حين لا نعثر على صفحة لطلاب الدورة 66 التي شارفت على الانقراض، كما يبيّن تقريرٌ استقصائيٌّ ممتازٌ أعدّته مجموعة مراسل سوري بعنوان: «الكلية الحربية في حمص–الدورة 66... ماذا حل بها؟!».

إلى متى سيبقى هؤلاء الشباب يتدافعون ليكونوا «فراطة» في جيب بشار الأسد؟!!!

مجلّة عين المدينة نصف شهرية سياسيّة متنوعة مُستقلة

- لا تعبر المقالات المنشورة بالضرورة عن رأي المجلة.
- ترحب المجلة بمساهماتكم غير المنشورة سابقاً.

3ayn-almadina.com
info@3ayn-almadina.com

@3aynAlmadina
/3aynAlmadina

البحث عن الدفء - الغوطة الشرقية / عدسة رامي الشامي